

مكتبة مصر
بصراحةٍ غيرُ مُطلقة
يوسف إدريس

بصَراحةٍ غيرَ مطلقة

مطبوعات مكتبة مصر

بصراحة غير مطلقة

تأليف

يوسف إدريس

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

مقــدمة

مشكلة هذا الكتاب فى رأيى أن موضوعاته فيها رأى ، وموضوعات كهذه يضعها النقاد دائما وضع مواطن الدرجة الثانية فى دولة الأدب والفن .. باعتبار أن هناك استحالة فى وجود الرأى المباشر مع الفن . لابد — فى رأيهم — لكى يكون الرأى فنيا ، أن يستحى ويتخفى تماما ، ولابد أن يظهر فى العمل بطريقة غير مباشرة .

والحقيقة أنى فى بحر عشر سنوات طويلة ، وأنا أكتب مادة هذا الكتاب ، لم أكن ألقى إلى هذه المشكلة بالا ، باعتبار أنى أنا الآخر موقن أنى أكتب للصحافة ، وهى جواز مرور أمثل لأى نوع من أنواع الكتابة ، وبالذات النوع القليل الفن . ولكنى وأنا أراجع الـ (تقريبا ٦٠٠) انطباع ولمسة ورأى ، لأختار منها المادة التى تليق بالقدس المسمى بالكتاب ، وجدت أن المسألة فى حاجة إلى تفكير من جديد . وللوهلة الأولى أحسست أننا نبخس « الرأى » وأهميته بظلم واضح ، وبدون تعريفات وتفاصحات كثيرة فإن أدق مقياس للعمل الفنى أو الأدبى هو أثره فى « المستقبل » أى القــارئ أو القراء . إذا كان العمل يبعث لدى القارئ أو المتفرج إحساسا بالتفاؤل فهو عمل متفائل ، رغم كل ما قد يقال عن نهاياته التعسة أو المتشائمة ، والعكس صحيح تماما . أما إذا لم يتأثر القارئ بالعمل إطلاقا ، فهو قطعا لا يمت إلى الفن بصلة مهما وجد فيه النقاد من رموز وتجريدات .

من هنا نستطيع القول بأن الفن ليس هو الأشكال الفنية المتعارف عليها

فقط ، وإنما هو كل ما يجعل « المستقبل » ينفعل انفعالا يشبه انفعاله بأى عمل فنى .. آيات الطبيعة ، جلسة صادقة صريحة مع أصدقاء ، « عمل » قام به أحدهم .

وهذا هو المهم .. رأى لا تتحرك له عقولنا فقط وإنما « ننفعل » له بعواطفنا ووجداننا أيضا . المشكلة إذن ليست مشكلة وجود الرأى فى العمل أو عدم وجوده .. المشكلة هى فى الرأى نفسه ، فى طريقة تقديمه بحيث يصل إلى طبقات أعمق ، ويحرك الوجدان . وبالمناسبة فإنى لا أطيق الحديث عن « العقل » و « العواطف » كشيئين مختلفين ، إن أمخاخنا لا تعمل هكذا أبدا ، لا تفصل . إنها كل متكامل ، كل ما فى الأمر أن العقل يحدد خط وكيفية السير ، والعواطف تحدد الاتجاه .. بالضبط كالتكتيك والاستراتيجية . ولا يمكن أن يتحرك العقل إلا بدافع من عاطفة ما ، ولا يمكن أن ينفعل الشخص بعاطفة إلا والعقل مشترك بكل قواه فى الانفعال .

ونعود للرأى . حقيقة هناك آراء تساق بطريقة ميكانيكية كمسائل الحساب والجبر ، ولكن بالتأكيد هناك آراء تبلغ من تحريكها لأعماق الإنسان وعواطفه مبلغا ربما يعجز العمل الفنى عن الوصول إليه .

لقد وجدت أنى — فى خضم العمل اليومى أو الأسبوعى فى الصحافة — قد وصلت إلى أشياء لا يمكن أن ينتهى الإنسان منها بمجرد انتهائه من قراءة الجريدة ، أشياء تكوِّن فى مجموعها أحاسيس وأحلام وعثرات وقفزات شاب مغامر .. خلال أخصب عشر سنوات من عمر الشباب ، من الثلاثين إلى الأربعين .

أشياء أرجو ألا يبدو من الطريقة التى أتحدث بها عنها ، أنى أعتز بها لأنها عملى أنا .

الحقيقة أن هدفى الوحيد من هذا الكتاب هو أن أضع أمام القراء — سواء من جيلنا كانوا أم من أجيال لاحقة أو سابقة — صورة حية لتفاعل إنسان مثلى مع أحداث حياتنا العاصفة فى الفترة ما بين ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ .

وكان من المستحيل أن تتجسد صورة كهذه إلا من خلال أعمال فيها رأى ، رأيى ، الذى قد يكون خاصا ، ولكننى لا أملك سواه ، فالرأى الصادق ليس تفكيرة أو تفنينة تستطيع أن تلفقها من وحى الساعة . رأيك الحقيقى شىء آخر .. إن الضمير ذلك الذى نجله ونقدسه رأى . ضميرك هو رأيك ، أو على وجه الدقة ، على أساس آرائك يتحدث ضميرك .. أدق أجهزة العدالة فى نفسك .

لو كنت أعرف أن مهمة اختيار عدد محدود من اليوميات والانطباعات والحكايات ، من بين ٦٠٠ عمل ، ستستغرق كل هذا الوقت والجهد والعذاب ، لفضلت ألف مرة أن أكتب كتابا جديدا . فالجهد الأكبر استغرقته دقة الاختيار ، إذ على أساسه سيتحدد صدق الصورة النهائية من زيفها .

وبرهبة أتمنى أن يجد القراء ما يعوض صبرهم ، ليس حتى على الكتاب كله ، وإنما أولا على قراءة هذه المقدمة .

القاهرة — أغسطس سنة ١٩٦٨

« ى . ا »



صباح الخير

حقيقة بسيطة ولكنها غريبة جدا فى الوقت نفسه ، قد لا تخطر لك أبدا وأنت تبتسم لمن حولك حين تصحو من النوم وتقول :

ــ صباح الخير !

هذه التحية كانت مشكلتى طوال جزء كبير من الليلة الماضية . أول ما استرعى انتباهى أن تحية الإنجليز لبعضهم البعض فى الصباح هى : جود مورنتج .. ومعناها صباح طيب أو صباح خير . قلت لنفسى : كيف تشابهت تحية الصباح عند الإنجليز فى أقصى الشمال وعند العرب ؟ نفس الكلمات بنفس المعانى ــ الصباح والخير .. كيف حدث هذا ؟ ومن منهم أخذ عن الآخر ؟

غير أن تلك الأسئلة أسلمتنى إلى مشكلة أخرى ، إذ باستعراض تحية الصباح فى كل اللغات التى أعرفها وجدتها متشابهة تشابها مذهلا محيرا . فهى بالفرنسية بونجور ، وبالإيطالية بونجورنو . وبالألمانية جوتن مورجن ، وهكذا .. وكلها معناها أيضا مثلما فى العربية : صباح الخير . أليست مشكلة تدعو للحيرة والتأمل ؟

الجنس البشرى موزع على رقعة الكرة الأرضية كلها ، تفصله عن بعضه البعض محيطات وأنهار وسلاسل جبال ومسافات مترية وزمنية شاسعة . وبسبب هذا الانفصال والتمزق نشأت عدة مجتمعات متفرقة ذات ألوان

مختلفة متباينة ، وتركيبات نفسية وخلقية مغايرة . لكل مجتمع منها لغته الخاصة وتقاليده وعاداته وحضارته . كيف حدث إذن أن تلك المجتمعات المختلفة حين أرادت أن تبتكر طريقة لتحية بعضها البعض فى الصباح والمساء ، اختارت نفس الكلمات ونفس المعانى ؟

هل حدث هذا بالصدفة المحضة ؟

مستحيل ! فلو كان الأمر قد حدث بالصدفة ، لوجد هذا التشابه بين مجتمعين أو ثلاثة . ولكن التشابه فى تحية الصباح موجود لدى كل المجتمعات ، المتقدم منها والمتأخر ، الأسود منها والأبيض والأحمر .

هل يكون التشابه قد حدث نتيجة للنقل أو التشرب . وتكون التحية مثلا قد تسربت من مصر القديمة إلى اليونان إلى أوربا ، ومن بلاد العرب إلى بلاد الفرس ؟

مستحيل أيضا ! فالتحية عند الفراعنة كانت صباح الخير أيضا باللغة الفرعونية ، وكذلك كانت عند قبائل الهنود الحمر فى أمريكا ، وبينهما مسافات بحرية ومائية لا يمكن اختراقها فى ذلك الوقت ، وكل مجتمع منهما قد نشأ مستقلا عن الآخر لا يعى حتى بوجود أى مجتمع على الكرة الأرضية سواه .

لماذا إذن لم يحدث اختلاف فينشأ الفراعنة يحيون بعضهم البعض بصباح الخير ، وينشأ الهنود الحمر يحيون بعضهم البعض بقولهم : حماك الله مثلا ، أو سمعا وطاعة ، أو أى شىء آخر غير تلك الكلمات نفسها ؟

الواقع أنى لم أفكر فى الموضوع طويلا لاهتمامى بجغرافية الجنس البشرى أو بدراسة تاريخه .. ولكن الذى استرعى انتباهى حقيقة هو أن معنى تشابه التحية عند كل الشعوب والمجتمعات أن طريقة انفعال الإنسان أو الجنس

البشرى واحدة ، مهما اختلفت الظروف والأحوال . فالشمس حين تطلع على كل هذه المجتمعات المتفرقة المتباينة ، المتأخرة والمتقدمة ، تولد فيهم جميعا نفس الشعور . وتدفع كلا منهم أن يلتفت للآخر ويقول : صباح الخير ! يقولها بالعربية والإنجليزية والسنسكريتية واللهجات المحلية فى أيسلندا وأفريقيا وأستراليا ، ولكنه يترجم بها إحساسا واحدا شعر به .. إحساسه باليوم الجديد .

وقد يقول قائل : وماذا فى هذا ؟ أليس الجنس البشرى متشابها فى ملامحه ، فلكل إنسان أنف وفم وعينان ؟ وهذا صحيح . ولكن التشابه هنا ليس تشابها فى الملامح الخارجية ، ولكنه تشابه فى الملامح الداخلية .. تشابه فى التصرف ، والتصرف عملية تفكيرية يخيل لكل منا أنها تختلف من شخص إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر ، وقد يكون هناك اختلاف ، ولكن التشابه الذى أعنيه هو تشابه ما وراء هذه المظاهر الخارجية المختلفة .. تشابه الأعماق تشابها أرسخ أقداما من كل هذه الاختلافات القشرية فى اللون واللغة والمأكل والملبس . تشابها عميقا قد يبدو أحيانا فى شكل تصرفات بسيطة جدا تمر أمام أعيننا دون أن نلحظها ، مثل تلك التحية التى تواضعت المجتمعات البشرية على استعمالها من تلقاء نفسها ، وبوحى من فطرتها الإنسانية فقط .. تحية الصباح ، تلك التى نتمنى فيها لبعضنا البعض ، من بلاد الإسكيمو فى الشمال إلى جوهانسبرج فى الجنوب — صباحا طيبا خيرًا نبدأ به يومنا الجديد .

تأملوا معى تلك الحقيقة ، فربما أدى بنا التأمل إلى كشف حقائق أخرى لم ندرسها فى الكتب عن الإنسان ذلك المجهول .



الشــىء الآخــــر

تعودت أن أذهب إلى عملى كل يوم عن طريق شارع قصر العينى وأعود من نفس الطريق ، إذ هو أقصر الطرق التى تصل بين بيتى ومكان عملى . وأول الأمر كان المشى فى شارع قصر العينى يبهجنى ، إذ كل ما كنت أراه فيه كان جديدا علىّ . ولكن طول المدة وكثرة التعود أفقدانى لذة الإحساس بالشارع ومن فيه ، حتى أصبحت أقطعه بلا وعى وبدون أن أفكر إلى أين أو كيف أسير . يكفى أن أضع نفسى فى أول الشارع لأجدنى أتوماتيكيا قد وصلت إلى بيتى بطريقة تلقائية لا دخل للإرادة فيها . وكنت أستسهل تلك الطريقة اللا إرادية ولا أفكر أبدا فى تغييرها . وحياتى حين توظفت كان لها أول الأمر طعم جديد .. كان المكتب الذى أجلس عليه أحس أنه حقيقة مكتب لامع وأنيق ، وأحس حين أعمل عليه أننى حقيقة أعمل وأنتج .. ولكن الأيام ، إن العادة لم تلبث أن أفقدتنى الإحساس بالمكتب ودقات المنبه التى توقظنى ، ونظرة زوجتى حين أعود وحين أغيب ، والطريقة التى أصفف بها شعرى ، وفنجان الشاى الذى أشربه فى الفراش بعد غفوة الظهر . هذه كلها كان لها مثلما كان لشارع قصر العينى طعم وجدة ، غير أننى فقدت الإحساس بطعمها وبجدتها ، وأخيرا بها نفسها .. وأصبحت لا أزاول حياتى بقدر ما أتحرك أتوماتيكيا داخلها ، وكأنها دائرة من أسمنت وأبواب وأقارب ومكاتب والتزامات أدور فيها مرة كل أربع وعشرين ساعة .. أدور كالسجين

المحبوس . بل حتى إحساسي بأني مسجون — الإحساس الذى كان يولد فىّ نوعا من الثورة والتمرد والرغبة فى التغيير — حتى هذا الإحساس فقدته و لم أعد أثور .

وأمس .. فعلت شيئا تافها جدا لم أكن أتصور أن يكون له ذلك الأثر . وأنا خارج من العمل خطر لى خاطر .. واحد من تلك الخواطر التى تخطر لنا ونلقيها من وراء ظهورنا ولا نحفل بها . الفرق أنى تحمست للخاطر ونفذته . كان لدى وقت فقلت لماذا لا أغير شارع قصر العينى وأحاول أن أعود إلى البيت مرة عن طريق شارع آخر ؟ وأخذت شارع الفلكى . ومن أول لحظة وضعت قدمى فيه بدأت حواسي تتنبه ، وبدأت آخذ بالى من الشارع . أمشى حقيقة ولا أتوقف ، ولكنى لا أترك شيئا يمر من أمامى أو أمر من أمامه دون أن أراه أو ألحظه وأفكر فيه .

ويا للعجب ما رأيت .. أشياء جديدة تماما على عينى . الشارع مختلف عن شارع قصر العينى ، والبيوت مختلفة ، بناؤها مختلف وروحها مختلفة ، وكأنما لكل شارع طعم خاص وروح خاصة . والبلكونات حديدها مختلف ، وحتى الملابس المنشورة على حبال الغسيل ألوانها بدت جديدة لعينى وكذلك طريقة نشرها وتفصيلها . وكل شيء كنت أحس به .. الأصوات ، طريقة نداء الباعة ، أشكال وأعمار وما يرتديه صبيان الدكاكين ، وشلل الطلبة التى تحتل النواصى ، واللافتات وطريقة كتابتها وما عليها من أسماء أطباء ومحاسبين وشركات . أسماء مختلفة جديدة لها وقع غريب على العين وطعم جديد على الذهن ، وكل اسم جديد ، ودكان جديد ، وشخص جديد ، يثير فى نفسى عشرات الخواطر الجديدة . حتى عساكر المرور الذين من كثرة ما اعتدتهم فى شارع قصر العينى كانوا قد أصبحو لدىّ مجرد إشارات آدمية بيضاء وسوداء

تنظم حركة السيارات ، وجدتهم فى شارع الفلكى رجالا حقيقيين لهم شوارب ووجوه ، ولكل منهم شخصية خاصة مستقلة ، وطريقة خاصة فى إعطاء الإشارات .

مشيت فى شارع الفلكى .. وصحيح أنى تعبت قليلا لأن المسافة أطول ، ولكنى عشت بكيانى كله فى تلك الدقائق التى قطعته فيها وكأنى طفل يتفرج على دنيا جديدة لم تخطر له على بال .

وحين عدت إلى البيت بدأت أفكر فيه — البيت — وفى مشاكله بطريقة جديدة ، وبروح جديدة ، وبدأت أحس أنى كائن آخر غير الذى غادره فى الصباح .

وكم من المشاريع نبتت فى رأسى ! وكم من الأحلام التى كان يخيل إلى أنها ماتت من نفسى وجدتها تنتفض وتملأ على خيالى ، وأحس أنها قريبة منى لا تكاد تحتمل إلا أن أمد يدى لأقطفها ! عاودنى الأمل .. أحسست وكأنى كنت فعلا ميتا وعدت إلى الحياة بطريقة ما ، وكأن الموت هو أن نسجن أنفسنا داخل حياة متشابهة واحدة .. وكأننا نموت حين نكف عن إدخال الجديد فى حياتنا . الموت هو أن ندور فى دائرة واحدة مهما كانت تلك الدائرة .. حقيقة أحسست وكأنى تناولت لتوى جرعة حياة ضخمة ، أصبحت بعدها أكثر قوة وأكثر حرية وتفاؤلا وإنسانية وأقوى إرادة . وكل هذا لأنى فقط عدت ذات مرة إلى بيتى من شارع آخر غير الذى تعودته ..!

ترى ماذا يحدث لو عدت كل يوم إلى بيتى من شارع جديد ، ولو قرأت كل يوم كتابا جديدا ، وتعرفت إلى شخص جديد ، وابتكرت طعاما جديدا ، ومارست تجربة لم أمارسها أبدا ؟..

* * *

لماذا رغم قسوتها
نحب الحياة

لماذا نستيقظ من النوم ملهوفين ونجرى على العمل ، ومن العمل نجرى إلى البيت ، ونتحمل الرؤساء ، والخضوع للمطالب والروتين ؟

لماذا نتعب أنفسنا ونعيش ، ونتمسك بحياتنا إلى آخر رمق ، رغم كل ما قد يكون فيها من ظلم وألم ؟

بالاختصار ، لماذا الحياة أصلا ؟ لماذ يكلف الشجر نفسه عناء النمو وتكوين الثمار ؟ لماذا تدافع أحط الكائنات عن بقائها بكل شراهة وشراسة ؟ لماذا يتعب الطير نفسه فى وضع البيض ورعاية الأجنة وملء السماء أسرابا وأفرادا ؟

هذه الأسئلة خطرت لى فى أثناء كتابة موقف من مواقف قصة أخيرة ، وردت فيه على لسان البطل . ولكنى لم ألبث أن وجدت نفسى أولى من البطل بمناقشتها .. وجدتنى أخرج من القصة وينتقل التساؤل إلى لسانى أنا . حقيقة ما دامت الحياة آخرتها الموت ، ما دام لها نهاية محتمة ، فلماذا البداية أصلا ؟ وما معنى البداية والحياة والنهاية ؟.. لا أعتقد أنى ، أو بطل القصة ، وحدنا فى ذلك التساؤل .. يخيل لى أن كلا منا لابد أن جاء عليه وقت .. أو سيجىء عليه وقت .. يجد فيه أسئلة كهذه تملك عليه عقله وتفكيره ، ويجد نفسه فى النهاية يتساءل مثلنا : لماذا أحيا ؟

الفلاسفة من قديم الزمان طرحوا السؤال وحاولوا الإجابة عليه ،

بعضهم قال : إن دافعنا الأول للحياة هو التكاثر والتناسل ، وبعضهم قال : بل هى غريزة حب البقاء الكامنة فى كل كائن حى ، وأكثر من إجابة تطوع بها أكثر من فيلسوف ، ولا يزال السؤال بغير جواب شاف .. وجدت أنى أنا الآخر مطالب بالبحث عن جواب .. فبرغم كل ما تقرؤه لأرسطو وأفلاطون وكانت وبرجسون ودوهرنغ وراسل وإنجلز ، لابد أن تجد نفسك فى أحيان مطالبا لكى تؤمن أن تبحث أنت عن الحقيقة .

ولقد حاولت أن أبدأ من البداية .. فأقول لنفسى : إن الحياة — ومنها الحياة الإنسانية ، نوع من الحركة ، وقوانين الحركة تنص على أن من خواص المادة أن تحافظ على حالتها الكائنة عليها .. فإذا كانت تتحرك فمن خواصها أن تظل محافظة على حركتها تلك ، وإذا كانت ساكنة فمن خواصها أن تظل محافظة على هذا السكون .. إلى أن تتدخل قوة خارجة عنها تغير من حركتها أو سكونها .

ممكن أن ننقل الفرض خطوة أخرى ونقول : إذا كان هذا هو القانون فلابد أن كل مادة حية من خواصها أن تظل تحتفظ بحالتها الحيوية حتى تتدخل قوة ترغمها على التخلى عن حالتها تلك وتدخلها فى حالة أخرى . بمعنى أدق .. نحن لسنا أحياء لأننا نحب البقاء ، العكس هو الصحيح .. نحن نحب البقاء لأننا أحياء ، ولا يمكن أن نجد كائنا حيا أو مادة حية لا تحب البقاء حية ، فهى رغما عنها — بحكم خاصيتها — لابد أن تكون كذلك .. وأيضا لن تجد مادة غير حية إلا وهى فى حالة تمسك واحتفاظ بانعدام حياتها ، تقاوم أن تدب إليها الحياة مثلما تقاوم الحياة أن يدب السكون إليها .. كل شىء فى هذا الكون يعمل على أن يظل على حالته ، فإذا تغير لابد أن يكون التغير رغما عنه لا بإرادته .

✻ ✻ ✻

الحقيقة الثانية ..

المادة فى كوننا تأخذ حركتها أشكالا عدة ، ملايين عديدة من الأشكال ، كل شكل منها يختلف عن الآخر ، فالعلم قد أثبت أن لا شيء فى الكون فى حالة سكون تام ، ذرات قطعة الرصاص فى حالة حركة دائمة مثلها مثل ذرات خلايا الإنسان . كل ما فى الأمر أن ذرات الرصاص تتحرك بطريقة أبسط وأبطأ ، بينما ذرات الخلايا تتحرك أسرع . وفى مدارات أكثر تعقيدا .

والخلاف بين الرصاص والبخار والعقل هو فقط خلاف فى السرعة ودرجة التعقيد .. ولأن المادة فى حركتها يمكن أن تأخذ عددا لا نهاية له من السرعات ودرجات التعقيد ، أى بتعبير آخر يمكن أن تأخذ عددا لا نهاية له من أشكال الحركة . لهذا نجد أن كوننا يحفل بعدد لا نهاية له من أشكال المادة ، وجود كل شكل منها على حدة هو فى اختلافه عن الأشكال الأخرى .. الاختلاف فى الشكل يحتم اختلافا فى المضمون أيضا ، فحركة ذرات الرصاص باختلافها عن حركة ذرات الخلية الحية ، تجعل من الرصاص رصاصا ومن الخلية كتلة حية . الاختلاف فى الحركة هنا شكل ومضمون فى الوقت نفسه ، واسم وصفة . الرصاص رصاص لأنه يختلف عن الحديد والإنسان ، فإذا فقد اختلافه عن الحديد والإنسان فقد رصاصيته ، والخلية حية لأنها تختلف عن الرصاص والحديد ، بل حتى عن مكونات نفس الخلية إذا ماتت ، فإذا فقدت الخلية اختلافها فقدت حياتها ..

الحقيقة الثانية إذن ، حسب قوانين الحركة ، أن كل شكل من أشكال الوجود يحاول المحافظة على الحالة التى هو عليها بطريق سلبية .. بمجرد البقاء فى شكله المختلف فقط . ولكنه يحافظ على اختلافه بطريقة إيجابية .. بمحاولة

فرض شكل حركته الخاص على أشكال الحركة الأخرى . النار مثلا تحاول أن تحيل كل شيء إلى نار ، والثلج يبرد ما حوله ، والحيوانات تأكل النباتات لتحولها إلى نسيج حيوانى ، وهكذا .

باستطاعتنا إذن أن نتصور الوجود على أنه مادة دائبة الحركة . تأخذ من حركتها أشكالا لا حصر لها .. أشكالا متدرجة فى درجة سرعتها ودرجة تعقيدها ، كل شكل منها يحاول ابتلاع الأشكال الأخرى وفرض نوع سرعته ودرجة تعقيده عليها .

* * *

الحقيقة الثالثة :

بدراسة تاريخ حركة المادة نجد أن الحركة فى الكون تجنح أكثر وأكثر إلى أن تتعقد .. والدليل على هذا أن كتلة الشمس مكونة من جزيئات وذرات ، وحتى من إلكترونات طليقة ، بينما فى الكرة الأرضية تجد هذه الأشكال قد تداخلت وارتبطت وتعقدت أكثر وأكثر ، ونتج عنها الماء والتراب والنبات والحيوان والإنسان .

فى عملية الصراع من أجل بقاء كل شكل من أشكال الحركة على حاله ، لمن النصر؟.. المشاهد أن أشكال الحركة المعقدة هى التى تبتلع الأشكال السفلى الأبسط وترفعها إلى درجتها من التعقيد .. ولقد ظلت أشكال الحركة المعقدة تزداد تعقيدا حتى وجدت الحياة ، وظلت أشكال الحركة الحية الدنيا تتعقد حتى وصلت إلى مراحل النبات الكامل والحيوان والإنسان .. والعقل .. العقل هنا هو أرقى أشكال الحياة وأكثرها تعقيدا .. ليس هذا فقط ، بل إنه شكل الحركة الذى يستطيع دونا عن بقية أشكالها الأخرى أن يتحرك حركة من تلقاء نفسه لا تخضع لقوانين الحركة .

وبمعنى آخر .. مادة الكون ظلت فى حالة حركة تلقائية وصراع بين أشكالها ، حتى ظهر العقل الذى بدأ يتحرك ويتصرف فى مادة الكون وأشكالها تبعا لإرادته الخاصة وقانونه الخاص .. ولكنها إرادة محدودة أيضا وخاضعة لقوانين الحركة العامة السالفة . فالإنسان يستخدم عقله لابتلاع كافة أشكال الوجود الأخرى ، ولإحالتها إلى إنسان ، أو تأنيسها على الأقل .. هو لا يمكن أن يوقف قوانين حركة المادة أو يلغيها لأنه هو نفسه مجرد شكل راق من أشكال حركة المادة .. كل ما فى الأمر أنه مرحلة نتجت عن تعقيد حركة المادة ، وبحكم خاصيتها تجنح إلى تعقيد حركة المادة أكثر وأكثر .

ولهذا . فكما كان الجليد فى العصور الغابرة يحاول أن يثلج الأرض وما عليها ، فكذلك الإنسان .. ذلك الذى كان فى مبدأ أمره مجرد أفراد متناثرين على سطح الأرض يحيون فى كهوف ، ها هو الآن يملأ وجه الأرض ، تكاثر جنسه حتى أصبح ثلاثة آلاف مليون ، ومن الأحجار صنع بيوتا ، ومن الحديد صنع آلات تتحرك .. استأنس الحيوانات واستغل النبات ، واستأنس كل ما على ظهر الأرض من مواد وطاقات ليحيلها إلى إنسان ، أو أقرب ما يكون إلى إنسان .

والنتيجة ؟ ..

أننا لا نحيا إذن استجابة لنداء حب الحياة ، ولكننا نحيا برغمنا ، بحكم قانون شكلنا الحى وحركتنا ، بحكم أننا مختلفون عن بقية أشكال الوجود اختلافا لا نملك معه إلا أن نستمر نختلف وندافع عن اختلافنا .. ليس فقط بمجرد تمسكنا السلبى ببقائنا أحياء ، ولكن بالتمسك الإيجابى ، بالدخول فى صراع مستمر مع غيرنا من أشكال الحياة واللاحياة ، والانتصار عليها

ورفعها إلى مستوى حركتنا الإنسانية ، ولأن قانون الوجود الأساسى أن الشىء الذى لا يغير لا يتغير ، وأننا ما لم نغير نحن من أشكالها ونستأنسها ، فأشكال الوجود الأخرى حتما سوف تغيرنا وتخضعنا لقانون حركتها .. تلغى وجودنا المختلف .. تقتلنا ..

لهذا ، فمجرد أن نبقى أحياء هو فى حد ذاته موت ، لأنه إلغاء لخاصيتنا كأحياء ، إذ خاصية الحى أن يغير كل ما هو غير حى إلى حى ، وإلا حوله غير الحى إلى جماد مثله .. ونحن نفعل هذا برغمنا وبإرادتنا .

دافعنا للحياة إذن ليس هو الخوف من الموت ، أو الرغبة فى التناسل ، أو المحافظة على النوع .. دافعنا أننا فعلا أحياء بغير إرادتنا ، حياة من تلقاء نفسها دفعتنا لأن تنشأ لنا إرادة ، نستخدمها لكى نتحرك حركة الإنسان الراقية المعقدة ، وأن نجعل غيرنا من الكائنات والمركبات — وحتى الأكوان — يتحرك مثلها .

وصحيح أن معظم الناس لا يحيون هكذا .. بعضهم يستخدم هذه الإرادة التى تفرد بها فى خدمة نفسه فقط ، وإحاطتها بما يؤمن وجودها على سطح الأرض . ومع أن فى هذا أيضا تحقيقا لبعض إرادة الحياة الكبرى ، إلا أنه تحقيق لها على أضيق وأحط نطاق .. أما حركة الجنس البشرى ككل ، فهى تمضى تنتصر وتكسب وتنجح .. لا فى إحالة كل ما هو حى إلى حى ، ولكن أيضا فى إحالة أشكال الحياة الإنسانية اسما إلى إنسانية حقيقية . والصراع بين ما هو خير فى الإنسان وما هو شر ، صراع ليس أبديا كما يعتقد البعض — إنه مرحلة من مراحل تأنيس الحركة الإنسانية داخل المجتمع الإنسانى ، تمهيدا للتفرغ كلية لتأنيس كل ما ليس إنسانا .

الإجابة عن السؤال : لماذا نحب الحياة رغم قسوتها ، ونحتمل شظفها ؟ الإجابة أننا نفعل هذا لأن الحياة لا تكون إلا بالانتصار على قسوتها . وتحمل صعاب الحياة ليس ضريبة مفروضة على الإنسان ، ولكن صعاب الحياة هى الحياة ، وأن نحيا معناه القدرة على التغلب عليها ، فالحياة ليست نزهة أو وليمة .. إنها معركة من لا يحاربها ميت ، وإن ظلت تحمله الأقدام !



الإنسان الآخر الذي يسكنني

أمضيت اليوم بطوله فى البيت أحيا كالناس الطيبين الصالحين . وفى المساء ذهبت مع زوجتى فى زيارة ، وتعشينا فى البلد ، وحضرنا حفلة ، ثم عدنا فى منتصف الليل . زوجتى سعيدة تتساءل عن اليهودى الذى لابد قد مات وجعلنى أقضى يوما كاملا معها ، وابننا سعيد وإن كان يعبر عن سعادته بطريقته الخاصة .. بالصراخ ورفضه خدعة البزازة . وكل شىء فى البيت هادئ وسعيد ومرتب ! والقاهرة .. والليل .. والأنوار .. وكل ما فى الكون يئوب مسترخيا راضيا إلى السكون الذى طال انتظاره .. أما أنا فقد كنت أكاد أنفجر — لا من الغيظ — ولكن من هاتين العينين الدخيلتين اللتين ظلتا تراقبانى فى سخرية وأنا أقوم بدورى طيلة اليوم ، بطريقة جعلتنى أخجل من نفسى ولا أستطيع أن أذوق طعما لكل ما رأيت وفعلت . عينان لا أعرف أين أذهب منهما ، ومنه ، من هذا الإنسان الآخر المخيف الذى يحيا داخلى ويحيل صدرى إلى نار دائما موقدة لا تهدأ ولا تخمد .. الإنسان الجاد الذى لا يبتسم ولا يعجبه العجب .. والذى يرتدى على الدوام ملابس الميدان ولا يستريح أبدا ، وليس فى حربه المتصلة هدنة . الإنسان الدائم القلق ، الدائم التفكير ، الخطير المشروعات . الباتر الإرادة ، العنيد الذى يضعنى كل لحظة أمام أوامر لا قبل لى بها . اذهب حالا وتطوع فى جيش التحرير الجزائرى .. أكتب قصة

عن السجن .. امتنع عن هذه النظرات الحنونة الخاصة التى تسترقها لابنك .. اعتبره مجرد واحد من مئات الملايين من أطفال العالم أنت أبوهم جميعا .. اقطع كل صلاتك الخاصة بالحياة .. لا تستمتع بهذا الطعام فغيرك جائع .. أنت مسئول عن الجوعى فى العالم .. أنت مسئول عن منكوبى أغادير .. مسئول عن الحرية فى بلدك وعنها فى العالم .. أنت لم تخلق لنفسك فلا ترح نفسك ، أنت خلقت لغيرك فافن فى غيرك وعش كيفما اتفق ، فالمهم أن تعمل أعمالا تجلب السعادة لكل الناس ، وتبدأ من الآن .. قم وانهض .

إنسان يسكننى ويجعلنى أنام وأنا واقف ، وأفكر وأنا واقف ، وإذا وقفت أريد أن أطير .. إنسان ألهث ولا أعجبه ، وأكتب ولا أعجبه ، وأجد نفسى مضغوطا بشدة بينه وبين المجتمع الصغير الذى أحيا فيه ، بل أجده يدفعنى جانبا أحيانا ويتصرف هو فلا يحفل بإحساس صديق ، أو قد يسئ إلى عزيز ، وأبادر لأصلح وأتعذب لفشلى فى الإصلاح ، وأتمزق لإحساسى أنى لا أستطيع أن أكون عاديا كما يريدنى الناس ، وغير عادى كما يريدنى هو ..

طوال اليوم الذى أمضيته « سعيدا » كالأزواج الصالحين ، أمضيه وأنا أكتم قطع الفحم المتقدة فى صدرى . قضيته وأنا « أتحمل » السعادة .. وأدفع ثمنها الفادح .. هذا الإحساس الممض القاتل .. الإحساس أنى أتواكل عن مهمة عظمى ، أنى أهملت ، أنى مقصر . إحساس التلميذ الذى « يزوغ » عن المذاكرة أيام الامتحان .. ولكن التلامذة يعرفون امتحانهم ويؤدونه ، أما أنا فلا أعرف امتحانى ولا مهمتى .

ومصيبتى أنى لست ضيقا بهذا الإنسان ، وكل مرادى أن أرضيه . وهو جبار لا يرضى أبدا ولا يهدأ ، كالنار التى أقدم لها نفسى لأرضيها فتزداد ضراما واشتعالا ، وربما لن ترضى وتخمد النار إلا بانتهائى وموتى ..

أتريدون أن تعرفوا رأى هذا الإنسان الأخير فيما أكتبه الآن ، إنه يتهمنى بالسخافة والأنانية ، وبتهمة أكبر . أنى أشرك قراء لديهم مشاكلهم الكثيرة فى مشكلة تخصنى أنا وحدى .

أتريدون أن تعرفوا رأيى ؟ إنه نفس رأيه .. فاغفروا لى ما كتبته .. إنى متأكد أنكم ستفعلون ، ولكن الكارثة الكبرى أنه هو لن يصفح أو يغفر أو ينسى .. سيظل يؤرقنى بتأنيبه أياما ، وربما سنين ، إنه لا يزال إلى الآن يؤنبنى على أخطاء ارتكبتها وأنا طفل !



وزن الحـــرية

لم أكن أعرف أن للحرية وزنا ، ليس وزنا معنويا ولكنه وزن مادى ممكن قياسه وحسابه ، كنت أقرأ فى كتاب ضخم للعالم الروسى الشهير بافلوف ، وإذا بى أجد هذه الفقرة الصغيرة البالغة الأهمية ، أنقلها هنا كما قرأتها :

« مرة خلال سلسلة التجارب التى كنت أقوم بها على فسيولوجية الجهاز الهضمى ، حيرنى سلوك الكلب الذى كنت أقوم بإجراء التجارب عليه .

كنت أنا ومساعدى قد وضعناه فى جهاز الإطعام ، وربطنا أطرافه الأربعة بطريقة تحد من حركته فقط ولكنها لا تقيده . و لم يقاوم الكلب ونحن نربطه ولا أظهر أى علامة من علامات الضيق بالوضع ، و لم نفعل شيئا آخر أكثر من تقديم وجبات الطعام له مرة كل بضع دقائق ، وفى مبدأ الأمر ظل الكلب هادئا يأكل برغبة ، وإفرازاته طبيعية .. ولكنه بمضى الوقت بدأت سلسلة غريبة من الأعراض تظهر عليه ، فبدأ ينبح وينفعل لأقل شىء ، ويثور ويخربش قاعدة الحامل وبعض قوائمه . وصحب هذا المجهود العضلى المستمر ضيــق فى التنفس ، وخفقان فى القلب . وإفراز غزير من الغدد اللعابية . واستمر هذا أسابيع كثيرة حتى أصيب الكلب بالسقم ، وأصبح غير صالح لإجراء تجاربنا عليه . ومع أننا كنا نعتقد أننا على معرفة وثيقة بطبائع الكلاب من كثرة ما أجرينا عليها من تجارب ، إلا أن سلوك هذا الحيوان بتلك الطريقة حيرنا تماما و لم نجد له تفسيرا ، فلم يكن هناك أى سبب يفسر تصرف الحيوان بتلك الطريقة الشاذة .

وأخيرا خطر لنا أن السبب قد يكون هو السبب البسيط الذى كان من الممكن ألا نفطن إليه لفرط بساطته . أى يكون السبب هو الأربطة التى تحد من حركة الحيوان وبالتالى من حريته ، وسمينا هذه الظاهرة انعكاس الحرية (Freedom Reflex) التى تدل على وجود غريزة الحرية (Freedom Instinct) . ومن الغريب أننا وجدنا كبار العلماء الذين كتبوا عن الغرائز لم يشيروا إلى غريزة الحرية هذه من قريب أو بعيد ، فالعلاّمة جيمس مثلا لا يشير إليها ضمن الانعكاسات الخاصة للإنسان « أى ضمن غرائزه » .

وبموالاة الدراسة فى هذا الاتجاه أمكننا أن ندرس بعض آثار غريزة الحرية هذه ، ونعرف أنها من الدقة بحيث إذا وضعنا أى شيء ولو كان بالغ التفاهة فى طريق الحيوان ـــ حتى ولو لم تقيد أطرافه ـــ لا نعكس هذا على حياة الحيوان نفسه ، ولأثر بشكل خطير على وظائفه الحيوية وبقية غرائزه . وأعتقد أننا كلنا نعلم أن هذا الانعكاس الخاص ـــ أو تلك الغريزة ـــ تبلغ عند بعض الحيوانات حد أنه لو قيدت حرية الحيوان بأى طريقة فإنه يمتنع فورا عن الطعام ، ولا يلبث أن يذوى ويموت .

الحرية إذن ليست مجرد شعار أو اعتقاد ، إنها حقيقة علمية ، غريزة مثل التزاوج والبقاء . الكائن الحى حى لأنه يملك حرية حركته ، وأى قيد على حريته أو حركته سوف يناضل ضده ويكافح ويضرب بالرصاص حتى يزول أو يهلك دونه . حقيقة علمية ما أجدر أن يتأملها أعداء الحرية وأعداء حركة الشعوب ، وما أجدرنا أن نتأملها نحن أيضا .. نحن الذين ننادى بالحرية ونؤمن بها .

★ ★ ★

الحيـــاة

أول أمس :

لعلكم قرأتم خبر الحادث الذى وقع على الطريق الزراعى بين القاهرة والإسكندرية ، والذى مات فيه أربعة وجرح أربعة عشر .. قدر لى أن أرى الحادث رأى العين . بالصدفة كنا قادمين بالعربة على نفس الطريق ، وفى منتصف المسافة بين طنطا وكفر الدوار وجدنا جمعا هائلا من الفلاحين يحيط بعربتين مدشدشتين مقلوبتين . وماكدنا نتوقف لنرى ما هنالك حتى تطوع فلاح شاب من تلقاء نفسه وقال :

ــ أربعة ماتوا والباقيين اتعوروا .

وهبطت تدفعنى الرغبة والرهبة والفاجعة وحب الاستطلاع . عربة مقلوبة مكسورة ، وعربة مقلوبة مفعوصة ، والزجاج مبدور يملأ الطرقات كحبات الأرز الأبيض المبعثرة ، وجثث .. أربع جثث مغطاة بقش الأرز يصرك بها الناس الطيبون الواقفون مخافة أن تخطئ وتدهسها ، وضابط النقطة يتم محضرا لا أدرى لماذا ولا متى بدأه ، وبرنيطة طفل صغير راقدة على التراب البعيد لا يجرؤ أحد على أخذها أو لمسها ، وعربة إسعاف ، وسوارى ، وعربات كثيرة واقفة هبط سائقوها يتأملون المشهد واجمين وكأنهم يتأملون المصير ، وتحت الأرجل والعربات دم .. دم كثير غزير داكن كاد لونه يأخذ لون أسفلت الطريق ، والواقفون جميعا يهمسون لبعضهم البعض وكأن شيئا كبيرا هائلا لا يزال محلقا فى الجو له مخالب وعلى استعداد للانقضاض .

قال أحد الواقفين :

— سائق هذه العربة مات ، وسائق هذه فى حالة خطرة . والجرحى نقلوا إلى المستشفى ، والقتلى ستحملهم عربة الإسعاف .

جرحى وقتلى ودم وارتباطات وصداقات ومئات الأقارب والعائلات والعمات والخالات ، تضيع كلها فى ثانية ، زمان كان الفارق بين الحياة والموت فارق شاسع وكبير .. مرض مزمن يعجز الأطباء عن علاجه ، نزال يستمر أياما طويلة وليالى . أما اليوم فالفارق بين أن تحيا وأن تموت بسيط جدا ، مجرد سهو يحدث . طوبة فى الطريق ، أن يأخذ السائق باله أو لا يأخذه ، أن يضغط على البنزين بخفة أو بثقل . ولست أبالغ ، فالحادث الذى رأيته — بضحاياه وقتلاه وجرحاه وخسائره — سببه أن كلا السائقين لم ير أحدهما الآخر لثانية واحدة ! ولو كان أحدهما قد فعل لما وقع الحادث . التفاتة ، سرحة صغيرة ممكن أن تكون قد استغرقت لمحة خاطفة من الوقت ، نقلت أربعة — وممكن أن تنقل أكثر — من عالم حى هم فيه أحياء لهم ما لكل الأحياء من قوة وحيوية وآمال وأولاد ومشاريع ، إلى جثث تحتها التراب وفوقها قش الأرز .

عدت إلى مواصلة السفر وفى قلبى انقباض بغيض وتأملات . بالآلة والبنزين والكهرباء والسكك العريضة والذرة دخلنا فى عصر السرعة . والفارق بين عصرنا هذا وعصر الدواب أن مسئولية الناس فى ذلك العصر كانت مسئولية جزئية ، فهم لم يكونوا يستطيعون التحكم تحكما كاملا فى دوابهم أو حظهم وظروفهم إلى درجة أنهم كانوا يريحون أنفسهم ويقولون : خليها على الله . أما فى عصرنا هذا فنحن نتحكم تحكما كاملا فى كل شىء ، ولهذا فمسئوليتنا كاملة عن كل شىء .. ولهذا فهى مسئولية كبيرة ، وكلما

كبرت المسئولية عظم أنفه خطأ ينشأ عنها وأصبح جريمة ، جريمة قد تودى بحياة بضعة أشخاص فى عربة ، وقد تودى بحياة بضعة ملايين فى دولة .

وطوال الطريق لم أستطع أبدا أن أنسى أن الفاجعة التى رأيتها كان سببها هفوة ارتكبها إنسان .

وطول الطريق وأنا لا أستطيع أبدا أن أزيح من خاطرى الدم الغامق المتجمد ، والزجاج المبدور ، والجثث المغطاة بقش الأرز ..

أمس ..

وفى الساعة الثالثة صباحا كنت فى مطار القاهرة ، والليل قد رطبت الثالثة حدته وخففت ظلامه ، والمطار راقد فى قلب الصحراء كالنجفة الكبيرة الموقدة ذات المصابيح المتعددة الألوان ، والطائرات جاثمة على أرضه والركاب يصعدون ويهبطون ، وبين كل حين وحين يرتفع صوت الميكروفون يقول : يسر شركة كذا أن تعلن عن رحيل طائرتها إلى بومباى وإلى فيينا وإلى براغ ونيويورك ، وأنا أودع صديقا .

وفجأة أحسست برجفة صغيرة تهزنى ، وبكلمة تحتل ذاكرتى كلها وتبهرها .. السفر .

كم من مرة تمنيت فيها أن أمضى عمرى مسافرا متنقلا من بلد إلى بلد . ونحن أطفال صغار — أتذكرون ؟ — حين كنا نفرح بالسفر ونظل طول الليل لا ننام مخافة أن يساهينا الآباء ويسافرون . أتذكرون اليقظة المبكرة والفرحة ، والمحطة ، والذهول الغريب المستولى على الناس .. ذهول السفر ؟ وانتظار القطار القادم من مكان بعيد مجهول ، ورائحة خشبه وعرباته وهى تختلط برائحة دخانه ورائحة الصباح المبكر مكونة رائحة السفر ، نستنشقها بشغف ونهم والقطار يمضى بنا سريعا ينقب الزمن والأفق ، ويذهب بنا بعيدا فى

أغوار العالم الفسيح المجهول .

وآلاف الأشياء تغير طعمها فى أفواهنا لما كبرنا ، والسفر وحده لم يتغير طعمه ، ولا تغيرت أبدا تلك الرغبة الملحة فى التنقل ، الرغبة التى تمنيت معها وأنا واقف يحجزنى حديد السور لو يصبح فى استطاعة الإنسان أن يسافر متى أراد وكلما أراد . لو اختفت فجأة تلك الحواجز السخيفة بين الدول .. اختفت الجوازات والتأشيرات والجمارك والحدود .. حدود الدول . وحدود الشعوب والأفراد والطبقات ، وأصبح العالم كله وطن أى إنسان لمجرد كونه إنسانا ، وأصبح الناس فى كل مكان أناسه ، وأى بلد يحل فيها بلده ، وأى لغة لغته ، وأى عملة عملته ، وأى جار أخاه .

الطائرات كثيرة ومحومة ، وقادمة من بلاد بعيدة وذاهبة إلى بلاد بعيدة ، والذهول الحبيب يسيطر على القادمين والذاهبين ، ونفسى أحس بها تتفتح ، وأحاول أن أعثر فيها على أثر لحادثة الطريق الزراعى والخوف من عصر الطائرات والعربات فلا أجد . أجدها قد أصبحت نقطة .. قطرة مريرة ذابت تماما فى حلاوة تلك الكلمة ذات الرنين الحلو .. السفر .



العودة ومشاكل العودة

كل عودة إلى مصر لها دائما سحرها الخاص ! ما من مرة كانت العودة مماثلة .. الطائرة النفاثة تحلق ، والمضيفة فى الميكروفون الأخنف تقول : بعد دقائق تصل إلى القاهرة . وتنظر من النافذة أسفلك فتجد أنوارا ، وتحاول التخمين . هذه طنطا ، هذه بنها ، القادمة هى القاهرة لابد ، ولكن القادمة لا تكون القاهرة . إن استعجالك للحظة الوصول يكاد يسقطك فى طوخ أو فى قليوب ، ولكنها القاهرة هذه المرة . هذه الساحة الواسعة المضاءة لا تكون ـــ فى مصر كلها ـــ إلا القاهرة ، ما أحلاك يا قاهرة ! ما أجملك من الجو فقط ! إنا عائدون مرة أخرى لك ، للحمى الغربية المزمنة ، للمعارك المعهودة ، للوجوه العجوزة التى كادت لطول بقائها تكتم الأنفاس .. إننا عائدون يا قاهرة ، فيك كل ما يغرى بالبعاد ، ولكن فيك ما هو أروع من القرب والبعد والمتعة والسعادة ، فيك الحياة .

إننى لا أعرف ماذا فينا نحن المصريين يجذبنا ـــ كاليويو ـــ بشدة وبقوة وباستماتة إلى هذه البقعة من سطح الكرة الأرضية ، وكأنما قد دفن لنا « عمل » أو شددنا إليها بتعويذة . فى قلب لندن فى ميدان ريجنت أو بيكاديللى ، الأنوار والفتارين والحركة الهائلة المائجة والمتعة على قفا من يشيل وسحر الحضارة الأوربية الخارق ، ولكنك فى لحظة تذكرها ، تومض قاهرتك فى مخيلتك فكأنما يومض الحق . كأنما تومض الأحلام الجميلة فيذوب شارع ريجنت وميدانه . تذوب حضارة أوربا ، وتتجرد وتقف

وكأنك فى الصحراء الكبرى ، أو فى قلب المحيط الأطلنطى قد انتقلت بكل ذرة حياة فيك إلى مصر ، ترويها بالدمع إن استطعت .

إنها عزيزة علينا وغالية ، وكلما قابلت أجنبيا زار مصر ووقع فى حبها أكاد أغار عليها من حبه . إنها تعز على المرء حتى وهو فى قلبها هنا . أكاد كل صباح أصحو من النوم لأقبلها وأقول لها : كيف حالك اليوم يا مصر ؟ كيف أصبحت ؟ كيف داويت الجرح الذى خلفه الترولى باص ؟ وأنت يا نيلنا ماذا دهاك حتى تبتلع أبناءنا بالجملة وكأنك أصبت فى عقلك بلوثة نهم وجشع ؟ أم تراك فى حنين — وقد أقمنا السد ومنعنا فيضانك — إلى عروس النيل نفتدى بها شرك ؟ ألا ما كان أحكم أجدادنا حين كانوا يفتدون مئات الأرواح بروح واحدة ، وما أسخف مهندسينا وأخصائيينا اليوم حين يقررون أن حوادثك ليست سوى قضاء وقدر لا علاقة لها بإهمال أو بعطب أو بشىء يدل على تقصير .

المهم — تلوح القاهرة دائما ويتجدد الشجن ، ولكن السعادة تتدفق بأعظم وأروع تدفق ، والقلب كالموشك على لقاء الحبيبة ينبض ، وأقسم أن النبض يسرع ، وألهث . بعد ثوان سيلامس العجل أرضك ، وحتى لو انفجر العجل ومتنا فسنموت هنا ولن نتمزق على أرض غريبة ، ولن نتجمد على الثلج ، على الأقل سيتاح لنا بجزء من اللحظة أن نستنشق قبضة هواء اختلطت بترابك ولامسته ، جزء حمل معه لابد أريج أذرتنا ، وضربات فئوس عمالنا ، ورذاذ سبابنا .

ولكنا دائما وأبدا وإلى أن يقدر الله نهبط فى سلام ، وللفرحة القصوى أحياء .. أجزاء عائدة إلى الكل الكبير . أخيرا بعد البرد والمطر والعواصف والثلج والترمومترات القابع زئبقها متجمدا فى القاع ، تلفح وجوهنا نسمة

الحب الدافئ.. أقصد الهواء.. هواءك يا أرضنا ، أرض كل هؤلاء الناس العرايا والمثقفين ، حتى أرض لصوصك وخفرائك ولومانجيتك ، أرضنا كلنا بلا تمييز ولا تحيز ولا استئثار . أتفهمين ؟

وصحيح أن الإجراءات التى تتخذ فيما بين الطائرة وباب الخروج من المطار إجراءات تكاد تجعل الإنسان يفكر فى العودة من حيث أتى ، إلا أن الإنسان يحتملها والسلام .. خاصة هذه المرة . فلقد صدمت حقيقة بمشهد حوالى عشرين ضابطا وصف ضابط يقفون عند الجوازات ، ولقد مررت ورأيت بلادا كثيرة شيوعية ورأسمالية وبين بين ، و لم أر فى مطار من مطاراتها هذا العدد المرعب من ضباط الشرطة بالملابس الرسمية ، بل إن ضباط الجوازات فى معظم بلاد العالم يرتدون الملابس المدنية حتى لا يفزعوا — ولامؤاخذة — القادمين .وإنى لأتساءل عن السبب فى هذا العدد الكبير وعن تواجدهم هكذا بطريقة تجعل الإنسان يعتقد كأن شيئا ، لا سمح الله قد حدث أو يوشك أن يحدث .

فى الليلة الرابعة عشرة ..

فى الليلة الرابعة عشرة فى بولندا أحسست بالحنين إلى مصر وإلى اللغة العربية ، وتجربة غريبة أن توجد فى وسط شعب يتحدث لغة لا تفقه فيها حرفا واحدا — واللغة البولندية من أصل سلافى واللغات السلافية كانت بعيدة عنا تماما وأعتقد أنها لا تزال — وأن ترى الحياة كاملة تدور حولك وتسير بكلمات ومصطلحات أنت تجهلها تماما .. تستمع وتحاول أن تخمن ، وتخطئ أخطاء بشعة فى التخمين ، والحياة سادرة سائرة أنت وحدك الذى لا تعرفها . تجربة تدفع لتأمل كثير ، ولكنها تدفعك أكثر إلى الحنين إلى لغتك وموسيقاك وتكوينك النفسى . وهكذا صممت أن أجد القاهرة .. فى غرفة الفندق

لحسن الحظ هناك جهاز راديو ضخم ، وبنظرة إلى حجمه قررت إما أن يستحضر لى الجهاز القاهرة وإما على الله العوض فى الصناعة البولندية . والمشكلة كانت أن أعثر على الصوت العربى العزيز بين أربع موجات قصيرة واثنتين متوسطتين وواحدة طويلة . أعددت نفسى لعملية بحث كان غير مهم عندى لو استغرقت الليلة بأكملها . ولكم أن تتصوروا مبلغ ذهولى حينما أدرت المفتاح قليلا على أول موجة قصيرة صدفتنى ، وإذا بى أذنا لأذن هكذا مع صوت من ؟ مع أم كلثوم .. مع اللغة العربية والقاهرة وموسيقانا وتكويننا النفسى مرة واحدة مفاجئة .. ولا خربشة ولا مطبات صوتية بل إرسال ثابت وكأنى أسمعها من المنصورة وليس من وارسو . فى لحظة انقلبت وارسو إلى المنصورة ، وشعور الغربة إلى ونس، عارم نشيط ، حتى مستمعى السيدة أم كلثوم الذين يضايقنى ترديدهم المتصل للآهات تلو الآهات وكأنهم كورس إغريقى مفروض ، كنت أستعذب منهم الأصوات وأحس كأنى بينهم ، وأم كلثوم ما أروع « سخوت » و « سعت بالجود » و « الاشتراكيون أنت إمامهم » وهى تأتينى من على بعد أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر ، فيها سيال عاطفى يوشك الوصول إلى القمر ، وفيها حلاوة من حلاوة عسل نحلنا ، وشربة « القلة » من مائنا تمحر فى عباب نفوسنا ، تحمل رائحة « تقليتنا » وأشجاننا وخرافاتنا وحلفات ذكرنا . شكرا هؤلاء المجهولين الذين أقاموا هذا الإرسال القوى لإذاعتنا ، شكرا للمذيع حين قال فى النهاية وقد حسبتها باريس أو طنجة ، هنا القاهرة .



الحـــر

انفتح أكثر من مليون حنفية ، وتدفق الماء يغسل مليون رأس ووجه وقفا ، وبدأ أهل القرية يومهم مبلمين متضايقين بوز كل منهم شبرين ، وعلى استعداد تام لخلق مشاجرة حامية إذا وجد الشاى ناقصا سكر ، أو إذا طالبه ابنه بالمصروف ، أو إذا لم يجد الهباب الشبشب « اللى قلت مليون مرة لازم يفضل متنيل هنا تحت السرير » .

وما كادت آلاف الأبواب تفتح وتفرغ آلاف البيوت محتوياتها من الأفندية والعمال والطلبة ، حتى بدأ الناس يدركون سبب الضيق الذى صاحب يقظتهم ، إذ كان الصباح أحر صباح عرفوه فى حياتهم .. صباح بدأت حرارته تصل إلى التاسعة والثلاثين فى غمضة عين .. صباح لم يستمر أكثر من ربع ساعة قضاها الموظفون يحتسون القهوة ويرسلون آلاف السعاة إلى آلاف محلات الفول والطعمية والبسكوت استعدادا لبدء العمل . ولكن العمل لم يبدأ .. بدأ الحر . « دى ما حصلتش » قالها مليون جار لجاره وزميل لزميله ومليون أم محمد لأم فيفى ، وأعقبتها أو سبقتها مليون لعنة أصابت بثونة وذلك المنخفض السخيف الذى حدث فى الصحراء وكان السبب فى تلك الموجة المفاجئة من الحر .

وأصبحت الحرارة ٤٠° ـــ وبدأت الحمى تجتاح القاهرة .. عشرة آلاف كف على الأقل ارتفعت وهوت على عشرة آلاف صدغ من أقلام ساخنة جدا ، لم ترفع لردها أكثر من خمسة آلاف كف ربما لنقص فى الشجاعة ،

وربما للحكمة القائلة « بات مضروب ولا تبات ضارب » وبدأت الأعصاب تلتهب وتتحول إلى أسلاك نحاسية ساخنة ، وبدأت آلاف العربات تتأرجح . الدركسيون ملتهب ، والبنزين ملتهب ، والأسطى محمود محموم ، واوع يا بن الـ .. وطاخ ! حادثة ، وصفارة ، ألف صفارة ، وأربعة آلاف جنحة ، ومليون خناقة ، وأكثر من أربعة ملايين يمين باطلة أقسمها سكان القاهرة ، ومليار مرة تقلقلت عظام الآباء والأجداد لتحتمي من اللعنات والدعاوى التي تتساقط عليها بالأكوام .

ووصلت الحرارة ٤١° وبدأت النار .. الشوارع نار ، والبيوت نار ، والظل نار ، والشمس نار ، والأكل نار ، والنوم نار ، وثمن الثلج نار ، والراديو نار ، عبد الحليم حافظ يجأر بأعلى صوته : نار يا حبيبي نار ، وأجراس تتن تتن حريقة . فين ؟ وإذا بالحريق مليون حريقة ، وكل حريقة في حاجة لإطفاء . السماء في حاجة لإطفاء ، والأرض في حاجة لإطفاء .

والناس والعقول وحتى الماء في حاجة لإطفاء ، وتتن تتن .. المطافي تحاول بلا فائدة إطفاء الحرائق ، والتنظيم يحاول إطفاء الأرض ، والكازوزة .. مليون زجاجة كازوزة تحاول إطفاء الأجواف ، والمحاولات كلها تزيد النار اشتعالا . والملجأ الأخير الثلج ، التهمته النار وتحول إلى دخان وحشيش ، يُباع سرقة ، ويشترى سرقة ، ويتعاطى خلسة .

وبلغت الحرارة ٤٢° — الموت . كل شيء وكائن بدأت تموت أجزاء فيه . الرغبات تموت ، والسيدة محشورة بين الرجال في الأوتوبيس كالطعام البايت لا يلتفت إليه أحد . وخناقة تنشب بين بائعي العرقسوس ولكنها لا تصل أبدا إلى حد التماسك .. ولسه ح اتخانق يا عم ؟ الدنيا حر . موت . والخدامة تتأخر وتفتح الست فمها كالعادة لتنصب منه الشتائم ، فتفتحه فلا يخرج منه

شيء ، لسانها يقف كالعصا الجامدة فى حلقها ويأبى التحرك .

الحرارة ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥° — موت وهلوسة واستسلام كامل للحر . الحديث يتناقص إلى كلمات ، ثم إلى أنصاف كلمات ، كالأغانى الأخيرة لصباح ونجاح سلام : آه .. أيه .. ياه . الملابس تخلع وتلقى قطعة وراء قطعة . المدير العام يلهث محشورا فى البانيو ، ووكيل الوزارة يهوى على زوجته المسورقة ، وامرأة المعلم برعى تقول له أيوه روح اتهوى عنى يا شيخ . ويصبح الناس عرايا تماما فى منازلهم . ويظن كل منهم أنه هو الوحيد العارى ، ولو قدر للحيطان أن تختفى لمات الناس من الضحك على بعضهم حين يرون أنفسهم ملايين العرايا فى مختلف الأوضاع . الراقد على البلاط ، والرافع ساقيه ، والممدد على بطنه ، وأشكال لا أول لها ولا آخر من الأجساد .. أجساد أحيانا أنصافها العليا لرجال وسيدات ، والسفلى أحيانا لأفيال . أجساد دائخة تنتظر غروب الشمس وكأنها تنتظر موعد الإفطار فى رمضان ، رءوس مدلاة مصدعة وكأنها منفوخة بدخان الأعصاب التى احترقت .

وتغرب الشمس ومع هذا تزداد الأرض التهابا ، وتتفتح ملايين الأبواب وتخرج ملايين الناس هالعة كالدجاج الذى طال حبسه ، زاحفة إلى النيل ، مستعرضة فيه ، طالبة حمايته .

ومع بدء الظلام الحقيقى تبدأ الحرارة تتقهقر رغما عنها كالجيش العنيد ، وتبدأ الألسنة تتحرك وتقول موت ، ثم نار ثم الدنيا لسه حر ، ومن جديد تبدأ الخناقات ، ثم تنخفض الحرارة درجة فتصبح أحاديث .

وهناك بعد منتصف الليل بكثير ، تهب نسمة واحدة فقط . يستقبلها سهران مثلى فيتثاءب مغتبطا وكأنه نجا من موت محقق ويقول : ياه أما كان يوم !.

الإنسان حيوان مائى

كيف يحدث هذا ؟

لست أدرى كيف يحدث هذا ؟ من أسابيع قليلة كانت عملية غسيل الوجه أو الاستحمام بالنسبة إلى عملية تعذيب .. كنت أقف أمام الدش وأتردد آلاف المرات وأنا أنظر إلى نقاط المياه الصغيرة التى تتساقط منه وأحس بالخوف منها وكأنها قطرات من ماء النار .. وبعد أن أستجمع أطراف شجاعتى وأفتح الحنفية ، ينساب الماء فى أزيز مخيف ، ويتصاعد لانسيابه بخار بارد مثلج ، وكأن الماء لا يتبخر ولكنه يتجمد بخارا .. وأغمض عينى فى النهاية وأنا أسلم نفسى لحزمة الإبر المتدفقة من الدش ، كل ثقب فيه تخرج منه إبرة مائية طويلة طولها أمتار . حزمة من الإبر الطويلة تتساقط فوق جسدى فى شراهة ووحشية وتكاد تنغرز فيه وتصل إلى النخاع .

وأى ماء كنت أراه أحس لتوى بالقشعريرة منه وكأنى أخافه وأخاف لمسه ، حتى النيل كنت إذا رأيت مياهه أحس برهبة طاغية .. كتل ضخمة هائلة من الماء الداكن المتكاثف وكأنها غابات وأحراش مائية نامية ، تنتظر أن يخطئ إنسان ويمد فيها قدمه أو يده ، فتشده وتبتلعه ولا تتركه إلا مخنوقا ..

ومن أيام قليلة حدث شيء عجيب ! فتحت الحنفية لأغسل يدى ، ودون أن أدرى أو أتردد وجدت نفسى أغسل يدى فعلا ، ووجدتنى لا أختصر الغسيل . أطيل فيه وأترك الماء ينساب على ساعدى حتى يبلغ الكوع . والماء لا يخرج منه بخار يغشو له الجو ولكنه يلمع كسبائك الفضة المجدولة .

وكنت أريد فقط أن أغسل يدى فإذا بى أغسل وجهى ورأسى ، وأجعل الماء ينساب فى صدرى فأستعذب لمسه وكأنه خد الجميل ، وأجعله ينساب فى فمى وأتذوقه وأجد طعمه حلوا وكأن ثمة سكرا طبيعيا قد أضيف إليه .

والنيل اختفت أحراشه ، واختفت كتل مياهه الضخمة الهائلة وبدت وكأنها قد شفت وخفت حتى تلاشت . ولم يعد فى النيل سوى ملايين الأطفال العرايا الحديثى الولادة يلعبون ويداعبون بعضهم البعض ، ويتقافزون ويتراقصون .ويكونون دوائر وقوافل وتشكيلات ، لا يكاد الإنسان يراها حتى يحس فى الحال برغبة لا يستطيع مقاومتها فى أن يخلع ملابسه ويقذف بنفسه بين ملايين الموجات الطفلة ، يلاعبها ويدعها تلاعبه ..

وطوال يومى أى ماء رأيته خارجا من عربة رش ، أو لامعا فى زجاجة كازوزة ، أو حتى مصبوبا من كوز .. أى ماء رأيته كنت أحس برغبتى فى صبه على نفسى أو شربه أو حتى مجرد تذوقه .. وأى ماء رأيته ولمسته كنت أحس بلمسه حبيبا غير غريب ، ولكأنه سلام صديق مألوف . صديق طفولة ، ربما كأنى ألامس نفسى ، كأنى أصبحت ماء مثل الماء ، أو أصبح الماء إنسانا ..

إنه الصيف ..



المفـترى عليهـم

فى صفحة كاملة قرأت لمحمد عودة مقالا عن « تبعات الاشتراكية » .
وعودة أحد الكتاب القلائل الذين تفرض كتاباتهم على القارئ احتراما خاصا وتقديرا .. فمع التحليل البارع تجد الخلق ، ومع الموضوعية تجد الحماس ، ومع الثقافة تجد التجربة والواقع . ولكن الذى أحزننى ويحزننى دائما هو هذا الهجوم الذى يلقاه المثقفون هذه الأيام .. لكأن الثقافة أصبحت تهمة وعلامة من علامات الإخلال بالشرف . والعجيب أن الهجوم يصدر عن مثقفين .. لولا الثقافة ما كتبوا وما استطاعوا القراءة والاطلاع على التراث الأجنبى ، وأخيرا لولاها ما استطاعوا أن يعرفوا قيمة القلم أو يتخذوه أداة للكتابة .. والهجوم ينصب دائما ، ولا أعرف لم ، على مثقفى هذا الجيل ، إذ نفس هؤلاء الذين يهاجمون مثقفى هذه الأيام نجدهم هم المنادين بتكريم الجبرتى وابن سينا وعمر مكرم وعلى يوسف وعبد الله النديم ومختار ولطفى السيد . أما حين يصل الأمر إلى هذا الجيل فإن حالة اشمئزاز مفاجئة تجتاحهم وتدفع واحدا أحترمه مثل عودة لأن يقول : إن الحل الحقيقى لأزمة المثقفين هو إنتاج مثقفين جدد .. مثقفين من قلب الشعب ، من أبناء العمال والفلاحين ، صادقين مع أنفسهم ، صادقين مع مجتمعهم ، لم يعانوا تشويه وتضليل الثقافة الاستعمارية وقيم المجتمع الاستعمارى .

لماذ أحكام الإعدام :

حقيقة أن عودة قبل هذه الفقرة يدعو الثورة لأن تصفح عن مثقفى اليمين واليسار وتمنحهم فرصة أخرى ليراجعوا أنفسهم ولينضموا إلى القافلة ، ولكن المثير هو حكم الإعدام الأخير الذى أصدره عودة على مثقفى هذا الجيل عامة ، حتى أصبح الحل الحقيقى استحضار أو استنبات مثقفين جدد . وكلام كهذا ليس ظلما فقط ، ولكنى لا أستطيع أن أسميه إلا بأنه نوع من الاندفاع المخرف المتحمس ، إذ هكذا طبع بعض الناس .. فى ساعات النكوص عملهم الوحيد أن يلوموا الآخرين ويسقطوا عليهم خوفهم ، وساعات الانتصار — مثل ساعتنا تلك — التى قام فيها قائد الثورة بعمل بطولى تاريخى عميق المدى والأثر ، يدفعهم الانبهار بالعمل إلى نسيان أشياء كثيرة أو تناسيها ، وعلى الأقل إلى نسيان أنفسهم والأرض التى يقفون عليها ، ويسارعون بإلقاء كل أوراق الماضى على الآخرين وتحميلهم مسئولية كل فشل سابق ، ثم أخيرا يعمدون إلى إلغائهم كلية كما يطالب الزميل .

بيت الداء :

والمثقفون هم أسهل الأهداف ، هم الحائط الواطى الذى يسارع كل صنديد بالقفز عليه . إن ما قرأته عن المثقفين فى بلدى جعلنى أحس وكأنهم مصابون بنوع من الطاعون .. بعضهم خونة وبعضهم سفلة وبعضهم انتهازيون ، وأقل صفة لبعضهم السلبية والعقم . إننى لا أعرف بلدا من بلاد العالم ثار فيه بعضهم على خلاصة خلاصته ، على هؤلاء الذين أنفق البلد على إنتاجهم المال والجهد والسنين بمثل ما حدث لدينا ، وبالذات هذا الجيل من المثقفين . ولو كانت الثورة قد استجابت لكل ما كتب وقيل لكان من واجبها

أن تقوم فى الحال بمذبحة قلعة أخرى ضد المثقفين ، وتركهم مشنوقين على عواميد النور فى شارع الكورنيش . ولكن الثورة لم تفعل هذا .. لقد وقف قائدها جمال عبد الناصر فى جامعة الإسكندرية يحاضر أساتذتها ويضع يده كالطبيب الماهر على بيت الداء ، ويقول : إن المشكلة لم تكن مشكلة المثقفين ولكنها مشكلة الطبقات . إذ المشكلة هكذا فعلا ، فأعداء شعبنا لم يكونوا هم المثقفين .. أعداؤه كانوا الاستعمار والرجعية ، الاستعمار بظلاله ومفهوماته وعقلياته ، والرجعية بكل صورها .. ولهذا حاربنا الاستعمار والرجعية ، وحين أصبحت الرأسمالية عدوا حاربناها ، أما المثقفون .. وبالذات مثقفو هذا الجيل ، فهم — لكى يستريح عودة — أسلم معه جدلا أنهم حافلون بالعيوب والمتناقضات ، ومع هذا فهم الجيل الذى صنع الثورة — هذه الثورة — بكتاباتهم ، بخطبهم ، بمواقفهم ، بالنار المقدسة التى أوقدوها ، بمطالباتهم بالجلاء ، بتضحياتهم ، بالسجون التى دخلوها ، بالشهداء الذين سقطوا ، بتجاربهم المرة العنيفة مع صدقى والنقراشى وإبراهيم عبد الهادى وفيتز باتريك واللورد كليرن والملك . هم الذين هيئوا الشعب للثورة . وحين جاءت الثورة عكس كل ما قيل التفوا حولها ، وكيف بمن مهد للثورة لا يلتف حولها حين تجىء ؟ وما حدث بين الثورة وبين قطاعات من المثقفين لم يكن نتيجة لعداء إذ لم تقم الثورة لتحطم المثقفين المخلصين . لقد قامت لتحطم الاستعمار والإقطاع والرجعية ، إن ما حدث كان فقط نتيجة لاختلاف فى الرأى .. اختلاف كان لابد أن يحدث ، فهو التفاعل الحيوى الخلاق الذى استفادت منه الثورة بقدر ما استفاد منه المثقفون ، والثورة يكون نجاحها أحيانا ليس فقط بمقدار ما تحققه من مكاسب وما تحرزه من انتصارات ، ولكن أيضا بمقدار ما تحدثه فى المجتمع من رجة فكرية وجذب وشد واختلاف واتفاق .

ما معنى الثورة البيضاء ؟

وأحد مفاخرنا أن ثورتنا كانت ولا تزال بيضاء ، وهى ليست مفخرة فقط ولكنها فى رأيى إحدى دعائم الثورة وركائزها ، فثورتنا بيضاء لأنها أبقت على هذا التفاعل الحيوى فى حدوده المعقولة ، والثورات الأخرى الدموية لجأت إلى الدم لضعفها ، لأنها قامت تريد أن تفرض الثورة فرضا على شعبها وليس أن تخلق من مواطنيها شعبا ثائرا . ولهذا فجريان الدماء على الأرض عقّم هذه الأرض وأخمد نهائيا هذا التفاعل الخلاق بين مركز الثورة ومحيطها ، وبين القادة والشعب ، وبين القادة أنفسهم والشعب نفسه . وقد فعلت ثورتنا هذا ، وقويت بهذا الفعل لأنها لم تيأس من طبقات بأكملها كما يدعونا بعضهم إلى اليأس ، ولا نفضت يدها من فئات بحالها . إن جمال عبد الناصر قد وضع بخطبته الأخيرة دستورا ثوريا جديدا حين تحدث عن فساد « البعض » ويأسه من « البعض » ، ولم يحكم أبدا على طبقة أو فئة ككل ، وحمدا لله أن الذين يكتبون عندنا ليسوا هم الذين يحكمون ، إذ من يدرى إذا ؟ ربما كانت الدماء قد سالت أنهارا وبلا سبب ، إن أخذ بعضهم الأمور مأخذا « فنيا » « جماليا » بحتا .

ماهى الجريمة ؟

حسنا أيها السادة الذين تحدثتم كثيرا وطويلا عن المثقفين حتى كادت الثقافة تصبح تهمة ، وبالذات تهمة هذا الجيل . ما هى الجريمة التى ارتكبها المثقفون ؟ أجريمتهم أنهم ثاروا على الاستعمار أيام كان عندنا استعمار ؟ أجريمتهم أنهم أصدروا مجلات وصحفا شتمت الملك وهو ملك ، وعادت الإنجليز أيام أن كان الإنجليز هم الإنجليز ؟ ووقفت بقوة وثبات وإخلاص ضد

جميع المحاولات التى بذلت لجر البلاد إلى مناطق النفوذ والأحلاف ؟ أجريمتهم أنهم جميعا ٩٩٪ منهم أيدوا الثورة قلبا وقالبا ووضعوا أنفسهم فى خدمتها فى تكويننا كشعب وكأفراد ، إلى الحد الذى نبدأ نحس معه أن لنا تاريخا لم تكتبه أجيالنا السابقة فقط ، ولكن كتبناه نحن أيضا . ارتكبوها كفئة بأكملها ليدعو الأستاذ محمد عودة الثورة أن تنتظر إلى أن يخرج جيل جديد من المثقفين أبناء الشعب ؟ وهؤلاء المثقفون معظمهم من أين جاء ؟

إنهم جميعا يكادون يكونون قد جاءوا — ليس فقط من صلب الشعب — ولكن كثيرين منهم جاءوا من أفقر طبقات الشعب . ولا يزالون إلى اليوم مخلصين لمساقط رءوسهم . وتجاربهم وثقافتهم « الاستعمارية » لم تلوثهم كما يدعى عودة ، بالعكس لولا هذا التراث من التجارب .. لولا كفاحهم الرهيب من أجل أن يضعوا أنفسهم وثقافتهم فى ظل أوضاع معادية خطيرة .. لولا صلابة العود التى اكتسبوها .. لولا كل هذه العوامل التى لم « تلوثهم » كما يقول عودة ولكنها « صقلتهم » و « سقتهم » وجعلتهم أبناء مخلصين لهذا الشعب يعملون من أجله قبل الثورة وبعدها ، لولا هذا ما كانوا قد استطاعوا القيام بكل ما قاموا به ، إن العمل العظيم لا يلغى أى جهد آخر مهما صغر ، ولقد كانت الثورة معجزتنا الكبرى وليلة قدرنا وعملنا الأعظم ، ولقد كان جمال عبد الناصر بطل شعبنا الذى ظل يبحث عنه وينتظره أحقابا وأحقابا . ولكن هذ البطل نفسه هو الذى يتولى بنفسه أنصاف هذه الأعمال التى تضاءل بجوار ما فعله ، هو الذى وقف فى ميدان عابدين يوم ٢٣ يوليو الماضى يقول : إن نجاح الثورة كان سببه الحاسم التفاف الشعب حولها منذ أول لحظة ، والمثقفون كانوا ضمن الشعب الذى التف حولها . وهو نفسه الذى حدد المشكلة فى جامعة الإسكندرية بقوله : إننا نعادى الأوضاع الظالمة

والعلاقات الاجتماعية التى تستنزف دماء الشعب وجهوده ولا نعادى أفرادا وطوائف . جمال عبد الناصر هنا يتكلم بضمير المثقف المخلص الشريف ، ويرد على كل الطعنات التى وجهت إلى المثقفين ، ويخاطب بالذات هذا الجيل منهم .. الجيل الذى مهد للثورة واحتضنها ولا يزال مستعدا للتضحية بالأرواح فى سبيلها .

الشعارات الرنانة :

أما أن يطالب الأستاذ عودة إزاحة هؤلاء جانبا واللجوء إلى جماهير الشعب مباشرة ، أو انتظار جيل جديد ينشأ من المثقفين ، فهو كلام إنشائى لا معنى له . فالمسألة ليست إطلاق شعارات رنانة ! إن القضية أخطر من هذا بكثير . إن إزاحة تراثنا الثقافى الممثل فى هذا الجيل .. إزاحة خبرتنا المبلورة فيه .. صرف النظر عن ثمرات أنفق شعبنا الكثير ليترجمها بدعوى أن اللجوء إلى الأصل معناه الوحيد إضعاف ثورتنا ، معناه حرمانها من جنودها وأركان حربها وخبرائها . إننا نقيم المشروعات والمصانع ليعمل الناس ويتثقفوا ، فنحن بلد فقير الموارد لا يزال المثقف فيه ثروة لابد من استغلالها ، وليس هذا فقط بل إنى لأطالب أن تفتح ثورتنا أذرعها لمثقفينا وأن تثق فيهم وأن تحملهم المسئولية . فإذا كانت هى القلب فهم الشرايين ، وإذا كانت هى العقل فهم الأعصاب . والجفوة بينهما لا محل لها ولا معنى . بالعكس أى خطوة لن يستفيد منها إلا أعداء الثورة أعداء المثقفين .. وبالذات مثقفى هذا الجيل المفترى عليهم . إنى لعلى ثقة من أن بعض عيوب التطبيق عندنا مرجعها إلى نبذ المثقفين والنظر إليهم بعين الشك ، وكيف يحدث هذا والثورة عندهم كالقلب غالية لا يتوقف لها نبض ؟ كيف يحدث هذا وهم الذين دعوا لها وبشروا

بها و كانت أقصى آمالهم أن تنجح وتمضى وتستمر ؟ بل حتى فى خلاف بعضهم معها كان السبب شدة الحرص على نجاحها وانطلاقها . إنى لا أستطيع أن أتصور ثورة تحارب الاستعمار العالمى ، والاحتكارات والإقطاع فى الداخل ، ورأس المال المستغل ، بلا جيش من المثقفين ، بلا خبرة المثقفين ، بلا إخلاص المثقفين ومثاليتهم .. حتى بلا أخطاء المثقفين . فأوهن الأخطاء دائما هى أخطاء المثقفين ، إلا ذلك الخطأ الذى يتردى فيه بعضهم أحيانا ويطالب بإبادة المثقفين وكأنهم جراد أو ناموس أو ذباب ذو طنين . والمصيبة أن هذا يحدث دائما من أحد المثقفين . واللهم احم كل المثقفين من بعض المثقفين ..



انهــزم العــدوان
وانتصــر الـروتين

لى مع العدوان الثلاثى الغاشم قصة خاصة كلما هل علينا نوفمبر من كل عام أتذكرها . ورغم أن معارك الشعب تتخذ ذكراها باستمرار طعمـا خاصا كلما تقادم بها العهد ، إذ هى لا تفقد أبدا محتواها العاطفى .. كلما استعدناها استعدنا معها أحاسيسنا العارمة بأول شعور بالغزو الأجنبـى أحسه جيلنا ، فالغزو كنا نقرأ عنه فى كتاب التاريخ ونحاول تخيل موقف شعبنا فى الإسكندرية وكل مكان ، وهو يواجه الأسطول البريطانى ويلتف حول عرابى ليلقى بالغزاة فى البحر . أما فى عام ١٩٥٦ فقد وقفنا مع شعور الغضب الخلاق المجيد وجها لوجه ، وأحسسنا لأول مرة فى حياتنا بمعانى كلمات كنا نرددها ترديدا نظريا أجوف مثل الغزو المسلح ، والاستعمار العسكرى ، والغدر الاستعمارى ، ومؤامرات الدول الكبرى وخستها . كل هذا عشناه، وشعرنا به وخضناه كتجربة موت وحياة ، تجربة تعاظم فيها إحساسنا بالخطر .. وتعاظم أكثر شعورنا بالرغبة المستميتة للوقوف فى وجه هذا الخطر وسحقه . إن كلمات جمال عبد الناصر سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. ولقد كتب علينا القتال كما كتب علينا الاستشهاد . كلمات مثل تلك لا يمكن إدراك معناها الحقيقى والشحنة العاطفية التى تصاحبها إلا لمن يقدر له أن يحيا تجربة الغزو التآمرى كاملة .. تجربة كلما مر عليها الزمن إزدادت أصالة وضربت بجذورها إلى أعماق بعيدة هنا فى داخلنا نحمل جمرة

مقدسة من تاريخ هذا الشعب .. كلما تعاقبت عليها السنون ازدادت توهجا وقدسية وأصبح لها فى أذهاننا مذاق معتق خاص . مذاق الحرية مختلطة بالدم .. مذاق الاستقلال مختلطا بمسئولية الحفاظ عليه .. مذاق الثورة مختلطة بروحها الدافعة الخلاقة المتوثبة .

ورغم هذه الأحاسيس البالغة القداسة ، تبقى لى مع ذكريات المعركة قصة لا أظن إلا أنها — كإحدى نكاتنا الشعبية المشهورة — ضاحكة . فبعد أكثر من عام مر على العدوان ، وكنت أثناءه مفتش صحة للحى العريق الدرب الأحمر ، فوجئت بالنيابة الإدارية لوزارة الشئون البلدية والقروية — التى كانت تتبعها الصحة — تستدعينى للتحقيق .. وذهبت إلى مقر النيابة وأنا أتساءل عن ماهية الجريمة المجهولة التى تستدعى هذا التحقيق . ولم يطل بى التساؤل فقد واجهنى وكيل النيابة بالتهمة ، وسألنى : لماذا لم أذهب إلى عملى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ؟ وكانت شهور كثيرة قد مضت وكنت قد نسيت .. فسألته بدورى : كيف عرف أنى لم أذهب إلى مكتب الصحة يوم ٥ نوفمبر المذكور ؟ فقال لى : إن أمامه تقريرا من المفتش الفنى للإدارة الصحية يفيد بأنه ذهب إلى مكتب الصحة فى اليوم المذكور وانتظر من الساعة الثامنة إلى العاشرة صباحا دون أن أحضر ، وأنه مر على المكتب بعد ظهر نفس اليوم فوجد أنى لم أذهب إلى هناك ، وأنه راجع الدفاتر فوجد أنى لم أكن قد طلبت إجازة أو أبلغت بمرضى ، فكيف أتغيب يوم ٥ نوفمبر بطوله دون إذن ؟

وجعلتنى الأسئلة الكثيرة أتذكر .. فيوم ٥ نوفمبر كان سادس أيام العدوان الثلاثى ، وكنت فعلا قد تركت القاهرة بكل ما فيها من عمل ومسئوليات وذهبت مع الأصدقاء أحمد عباس صالح وكامل زهيرى وأحمد مجاهد وسعد

زغلول وعادل أمين إلى المطرية ، فى طريقنا إلى بورسعيد ، حيث وجدنا الصديق الفنان حسن فؤاد ينتظر هو الآخر أن يهرب إلى بورسعيد .. وكان المسئول عن العملية كلها وعن جبهة المطرية الضابط « م ، أ » وهو أحد أبطال جيشنا الأحرار ، وقصة سفرنا إلى المطرية ومحاولات تهريبنا إلى بورسعيد فى حد ذاتها صفحة من صفحات كتاب العدوان ليس هذا مكانها ، ولكن المهم أنها حدثت يوم ٥ نوفمبر .. اليوم الذى استدعتنى النيابة الإدارية لتحقق معى سبب تغيبى فيه ، والحقيقة أن السؤال روعنى ، فالبلاد كلها تواجه خطرا داهما ، وكانت هناك غارات مستمرة على القاهرة ، والمواصلات متوقفة ، والكهرباء تسحب فى أثناء الغارات ، والشعب كله بفلاحيه وموظفيه وعماله قد ترك كل شىء ليتفرغ تماما لمواجهة العدوان ورد الطغاة . كله إلا ذلك المفتش « الفنى » الذى استيقظ مبكرا جدا واخترق القاهرة المشتعلة والجماهير المحترقة بالحماس والغضب ، ولن يأبه لهذا كله وإنما مضى بنشاط غريب إلى مكتب صحة الدرب الأحمر ليجلس هناك منذ الساعة الثامنة صباحا ليعرف إن كان طبيب المكتب سيحضر فى ميعاده ، أم سيتأخر ساعة ليتسنى له أن يضع تقريرا عن هذا التأخير ؟ بأية عقلية فعل هذا كله ؟ وبأى مقدرة خارقة استطاع أن ينفصل نفسيا عن شعبنا كله ليتركه يواجه المعركة ويتفرغ هو لضبط موظف فى حالة تأخير أو غياب .

ورفض وكيل النيابة أن يكتب ردى أول الأمر ، ولكنه رضخ للأمر الواقع وكتبه . إذ قد طالبت فى ردى لا بأن يحدث التحقيق معى عن غيابى ولكن لابد من التحقيق مع المفتش « الفنى » هذا بتهمة أنه كان يؤدى عمله التافه فى وقت تتعرض فيه البلاد لأقسى محنة مرت بها ، إن أداء العمل الروتينى حينئذ هو الجريمة ، وليست الجريمة ترك العمل لإنقاذ الوطن .

ولكن الروتين هو الروتين ، والجهاز المنحط هو الجهاز ، والروتين مع الإنجليز والاستعمار والعدوان لا يعقل أبدا أن ينقلب ويصبح مع الشعب والوطنية ، والشيء الذى يحز فى النفس أننا هزمنا العدوان الثلاثى حقيقة وقضينا على الاستعمار ، ولكننا لم نستطع أن نقضى على الروتين .. ففى قضيتى الخاصة ، ورغم الظروف الواضحة ، انتصر الروتين ، وكانت نتيجة التحقيق بعد انقضاء أكثر من عام على هزيمة العدوان ، أن جوزيت بخصم ثلاثة أيام من مرتبى مع الإنذار ، لأنى تغيبت بدون إذن يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ !



بصـــراحة (*)

انتهت اللجنة التحضيرية من المناقشات العامة ، وقد سمعت كثيريـن يقولون إن النقاش داخل اللجنة التحضيرية قد طال وتشعب وإننا فى ثورة لا تحتمل هذا الأخذ والرد .

والحقيقة إنها وجهة نظر بالغة الأهمية ، فبعض الإجراءات الثورية تفسد فاعليتها بمحاولة الإعلان عنها أو طرحها للمناقشة قبل التنفيذ . ولكن هناك وجهة نظر أخرى لا تقل أهمية لكى ندركها لابد أن نسأل أنفسنا أولا : هل الثورة هى النجاح فى سن وتطبيق الإجراءات الثورية ، أم الثورة أساسا وقبل أى شىء آخر هى إيمان الناس بحتمية هذه الإجراءات ، وإدراكهم لضرورة القيام بها وتبينهم لها ؟ والناس هنا هم أولا طبقات الشعب وفئاته التى قامت من أجلها الثورة وتسن من أجل مصالحها هذه القوانين .

ذلك هو السؤال ، والإجابة عنه ـــ ونحن فى صدد بناء الهيكل التنفيذى والتشريعى للثورة ـــ من الأهمية بمكان ، فالإجراءات الثورية ضرورة حتمية من ضرورات أى ثورة ، وإيمان الناس بهذه الإجراءات وفهمهم وهضمهم وتبينهم لها ضرورة لا تقل أهمية ، فهذا الإيمان هو الحماية الأولى والأخيرة للإجراءات ، ومن ثم للثورة نفسها .

(*) كتبت عام ١٩٦٢ .

المشكلة إذن ليست القيام بالإجراءات الثورية .. المشكلة الحقيقية هى فى إيمان الناس إيمانا لا يتزعزع بها ، فالإيمان هو الثورة . إذ حين يدرك الفلاح ويؤمن إيمانا عميقا أن الأرض التى يزرعها هى من حقه ، ومن حقه وحده تملكها .. وجود هذا الإيمان فى قلب الفلاح حتى ولو لم يكن باستطاعته تملك الأرض ، هو الثورة . أما منح الخمسة فدادين لفلاح لا يزال يدرك أن الأرض لمالكها وأنها خير هبط عليه من السماء أو ورقة يانصيب ربحها ، فهو عمل حقيقة قد يرفع من مستوى الفلاح ويجعله مالكا ، ولكنه أبدا لا يعد ثورة ولكنه من نتائج الثورة . وهذه الكلمات الضخمة الجوفاء التى نسمعها تقال وتطلب « الرحمة » و « العدل » ومنح « الفرص الأخرى » للإقطاعيين والرأسماليين ، وكلمات إذا تعمقنا أصلها وجدنا أن سببها راجع إلى أن قائليها — بعد — لم يؤمنوا بالثورة ، ويعتقدون مثلا أنها « مصائب » حلت بالرأسماليين والإقطاعيين ، أو إجراءات قامت بها « الحكومة » .

فليستمر النقاش :

النقاش إذن داخل اللجنة التحضيرية وداخل المؤتمر العام — حتى ولو استمر طويلا — ليس واجبا فقط ولكنه ضرورة حتمية لابد منها لكى يتبين الناس القوانين الثورية ، ولكى تحس جماهير الشعب وتدرك أن التغيير لها ولمصلحتها ، وأنه ليس عقابا لأحد على ذنب ارتكبه ، ولا محاولة للانتقام من عبود أو فرغلى للوسائل غير القانونية التى لجأ إليها هذا المواطن أو ذاك من « الأغنياء » كى يفروا ، ولكنه تغيير اجتماعى جذرى فى طريقة حياتنا ووسيلة وطرق إنتاجنا ، تغيير يمليه العلم والتطور والمصلحة ، تغيير ليس هدفه

« رفع » مستوى حياة البعض « بمصادرة » أموال البعض الآخر ، ولكنه تغيير هدفه أن يكمل تحررنا .. وبمثل ما طردنا المستعمر كى نتحرر كشعب ، نحطم النظام الاستغلالى الاستعمارى كى يتم تحررنا كأفراد .

مثل هذا التغيير قد يتم على الورق بقوانين وإجراءات نصدرها ، أما لكى يصبح حقيقة واقعة لها كل قداسة الإيمان فلابد أن يعقبها تغيير جذرى مماثل داخل كل عقل وقلب ، لابد أن يؤمن كل منها إيمانا راسخا به . والإنسان لا يؤمن إلا إذا اقتنع .. والاقتناع لا يتأتى إلا بالنقاش ، ومن أجل هذا فنحن فى حاجة إلى مناقشات كثيرة ومناقشات .. نفس حاجتنا الماسة إلى الإجراءات

الديمقــراطية :

وهو موضوع يقودنا فى نفس الوقت لمناقشة كلمة كثر استعمالها فى الآونة الأخيرة .. الديمقراطية . وقف خالد محمد خالد يدافع عن ديمقراطية مثالية ، ورد عليه الرئيس بمفهوم علمى للديمقراطية الاشتراكية . والديمقراطية على أى الحالات تعنى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . جاءت الثورات الوطنية لتحقق هذا المبدأ ، وحين قامت الثورات الاشتراكية وضعته نصب عينيها . اسما فى حالات ، وحقيقة محدودة فى حالات أخرى . وكان لابد لثورتنا هى الأخرى أن تأخذ موقفا ما من الديمقراطية باعتبار أنها الحرية الكاملة للشعب واللا حرية لأعداء الشعب . والوسائل والأشكال الديمقراطية كثيرة ومختلفة ، ولكن هناك ركنا هاما من أركان الديمقراطية لابد منه لأى حكم شعبى ، سواء فى ديمقراطية سليمة أو حتى فى ظل أوضاع ديمقراطية فاسدة . هذا الركن هو مسئولية الحكومة أمام الشعب . فلنتبع فى حكم أنفسنا أى طريق نشاء ،

ولكن لابد أن يكون لنا فى النهاية وسيلة نستطيع بها أن نحاسب الحكومة . لابد لنا من جهاز من حقه أن يراقب ويناقش أعمالها ومشاريعها وسياستها وينقدها ويوجهها ، لا لمجرد مبدأ المراقبة والمحاسبة والتوجيه ولكن لكى تتم أساسا عملية الإيمان بكل ما تقوم به الحكومة من إجراءات .. فالإيمان كما قلنا لا يتأتى إلا بمناقشة ، وإلا بحق فى المناقشة وحق فى إبداء الرأى .

لقد كشفت مناقشات اللجنة التحضيرية أنه حتى مثقفينا الكبار — بعض أساتذة الجامعات ووكلاء الوزارات مثلا — متخلفون فكريا وثوريا عن قيادتنا ومفهومنا للحكم والثورة .. وهو ليس عيبا فاضحا كما يبدو للبعض . إنه فى رأيى ظاهرة طبيعية جدا سببها الأول الانفصال الفكرى بين القيادة والقاعدة . وحتى إذا نحن ضيعنا وقتا كثيرا مع هؤلاء لنناقشهم ونفهمهم كى يصلوا إلى مستوى القيادة فى الإيمان ، فهو وقت غير ضائع أبدا . إنه وقت نكسبه ونوفر به أن نبنى البناء على غير أساس من التفهم الكامل واليقين . إن الثورة لكى تستمر ماضية ناجحة مكتسحة لابد أن تمضى بنا كلنا ، بفهمنا الكامل لها ، باقتناعنا وإيماننا وإرادتنا ، فنحن الهدف من قيامها ، ونحن أيضا الوسيلة لإقامتها .

فلتوسع القيادة صدرها :

إن الخطوات التى حققتها ثورتنا تعثرت ثورات كثيرة وهى تحقق بعضها ، ومهمة ثورتنا ليست مهمة تخص الشعب فى مصر فقط . إن مصر سواء أرادت أم لم ترد هى حاملة لواء الثورة العربية كلها ، وجمال عبد الناصر هو الزعيم الذى أجمعت الشعوب العربية رغم الحديد والنار على مبايعته .. إنها تضع فيه كل آمالها ، كل مطامحها وأيام مستقبلها . وهى حقيقة لا نقولها

خطابة أو إنشاء .. إنها واقع ملموس يكفى أن تطوف البلاد العربية لتراه وتحسه وتفخر به . ثورتنا غالية إذن لأنها ثورة العرب ، على مصيرها يتوقف مصيرهم ، وأعداؤنا يعلمون هذه الحقيقة تمام العلم ويبنون كل خططهم فى المنطقة على أساسها .

ثورتنا هى أعلى حقيقة نمتلكها إذن ، وأمضى سلاح عثرنا عليه بعد طول عناء وطول فشل ، وجربناه ونجح النجاح الأكيد . من واجبنا إذن أن ندافع عنها إلى آخر رمق ونحفظها ، وأولا وقبل كل شىء نهيئ لها أسباب النجاح . من واجب كل منا أن يساهم بقلبه وعقله ولسانه ، أن يحياها ويربط مصيرها بمصيره .. ويجب أن تتهيأ قيادة ثورتنا لهذه المشاركة الجماعية الكبرى ، وأن توسع صدرها حتى لآراء كهذه يعرضها أصحابها بشكلها الخام الذى واتته به . يجب أن ندرك أننا ما لم نغير جذريا من الطريق الذى كنا سائرين فيه فمعنى هذا أننا سنعود لارتكاب نفس الأخطاء . ومحال أن نظل نرتكب نفس الأخطاء ، فقد ظل شعبنا .. وظلت شعوبنا العربية كلها تنتظر يوم الخلاص على أيدى ثورة تنبثق منها وتندفع بها بقوة إلى الأمام ، والثورة جاءتنا وعاشت بيننا زمنا ، فأى موقف سلبى منها جريمة .

ليقل كل منا ما عنده ، ولتسمع القيادة وتع وتنفذ ، ولنكن صادقين مع أنفسنا ومع بعضنا البعض خاصة ، ونحن نتحدث عن قمة الصدق ، ونحن نتحدث عن الثورة .



كلمــة الثنــاء
قـد تقتـل أحيـانا

قابلت اليوم الرجل الذى كاد يقتلنى مرة بسبب كلمة ثناء عابرة قلتها له ، وكانت المقابلة مفاجأة لكلينا ، فلم أكن أتوقع أن يعمل عم عفيفى سائق تاكسى بعد إحالته إلى المعاش ، وهو لم يكن يتوقع أبدا أن يكون زبونه هذه المرة هو نفس الطبيب ، رئيسه السابق فى الصحة ، ولكنها الصدفة المحضة آثرت أن تجمعنا ، وهى التى أعادت إلى ذاكرتى أيام الصحة وأوبئتها ومشاويرها ، والعربة الفورد المتهالكة التى كثيرا ما خرجت بها مع عم عفيفى فى مأموريات رسمية ، وكان للعربة أكثر من سائق ، وكانوا يتمتعون جميعا بخاصية البطء الشديد والقلب الميت ، ما عدا عم عفيفى المتحمس السريع الذى كان رغم هذا أكبرهم سنا .

وحدث أن بلغ إعجابى به ذات يوم أن قلت له مادحا إنه أسرع سائق فى القاهرة .. والحقيقة كان قولا أغبر . فما من مرة ركبت فيها العربة معه بعد هذا إلا وأركبنى ألف عفريت .. حتى لقد كنت أقطع الرحلة وأنا نصف واقف أكاد لولا الحياء أن أقفز من النافذة أو أستغيث بالمارة . وطبعا كنت لا أسكت .. طوال الطريق أستحلفه وأرجوه وأحيانا أستعمل سلطتى وآمره وأنهره .. وعبثا ما كنت أحاول ، فقد كان يأخذ كلامى على محمل آخر ، يعتقد أنى أطلب منه أن يبطىء لأنى أشك فى قدرته على القيادة

السريعة ، ولهذا يندفع بسرعة أكبر ليثبت لى أنه لا يزال هو الشخص الذى قلت عنه يوما أنه أحسن سائق بالقاهرة . والنتيجة أن حدث لى ما كان لابد أن يحدث يوما ، ووجدت نفسى ذات مشوار ملقى على الأرض أمام وابور زلط تحت رحمة عجلاته التى لا ترحم ، فقد اصطدمت الفورد به صدمة بلغ من شدتها أن حطمت المقدمة — مقدمة عربتنا طبعا — وفتحت أبوابها قسرا ، وألقتنى أنا أمام الوابور وجعلت عم عفيفى يغطس فى الدواسة .

الدرس القاسى :

حكاية صغيرة كما رأيتم ، ولكنها لقنتنى درسا لا أزال أعيه ، إذ دلتنى يومها على خطورة الكلمة ، وبالذات كلمة الثناء . كلمة ثناء صغيرة قد تقولها حتى وأنت غير مؤمن بها ممكن أن تكهرب شخصا بريئا . وممكن أن تدفعه للنجاح الهائل أحيانا ، وأحيانا للسقوط فى الهاوية أو على الأقل أمام وابور زلط . بل غيرت هذه الحادثة من مفهومى للغرور ، فقد كنت أعتقد قبلا أن الغرور شىء ينبع من داخل النفس ويجعل صاحبه يؤمن بأنه يملك قدرات هو فى الحقيقة لا يملكها . تأكد لى يومها أن الغرور شىء يفد على الشخص من الخارج ، من المحيطين به واللاصقين . وإنه ينتج عن سماعه لكلمات الثناء فقط ، فالكائن منا يتحرك إلى الأمام تحت تأثير قوتين متضادتين متناقضتين ، قوة ثقته بنفسه وقوة عدم ثقته بها ، قوة إيمانه بما لديه من ملكات وقوة إحساسه بنقص ما لديه من ملكات ، قوة رضائه عن نفسه وقوة سخطه عليها ، قوة إحساسه أنه يصيب وقوة إحساسه أنه يخطئ ، والثناء فقط .. كالدفع من ناحية واحدة فقط ، يجعل خط حركة الإنسان ينحرف إلى الناحية المضادة ، ثم لا يلبث بمواصلة الثناء أن يزداد انحرافا إلى درجة تميل

حركته الأمامية لتصبح قوسا ، ثم دائرة ، ثم دائرة مفرغة يتحرك فيها حول نفسه ويكف عن قلقه لبلوغ الأحسن وإكمال النقص . الغرور إذن نهاية وتوقف وشلل يصيب الكائن الإنسان ، سببه تلك الجرعات السامة من الثناء التى يسقيها له أناس يهمهم التقرب إليه ، جرعات يتناولها الإنسان بلا إحساس بخطورتها فى أول الأمر ، ولكنها بمضى الوقت تصبح إدمانا .. فيسمع المغرور الثناء الواضح الزيف ومع هذا يطلبه ، ويفعل المستحيل ليظفر به حتى وهو يراه رياء وتملقا ، إذ لا يملك إلا أن يتجرعه .. ربما ليحس أنه يتحرك ، ربما ليخدر وعيه عن شعوره الداخلى العميق بأنه واقف فى مكانه ومشلول .

لكى يظل الإنسان ماضيا فى حركته إلى الأمام لابد من كلمة أخرى تقال له ، كلمة تدفع من الناحية الأخرى .. كلمة النقد . فالثناء من ناحية ، والنقد من ناحية أخرى هما الطريقة الوحيدة التى لا يعرف البشر سواها للحركة . فالإنسان لا يتحرك وحده ، إنه يتحرك فى جماعة ، وإذا كان دور الفرد بالنسبة للجماعة أمرا معروفا ومشهورا ، فدور الجماعة بالنسبة للفرد دور أكثر أهمية .. فكلماتها وآراؤها وهمساتها وزجرها هى التى تتغذى عليها نفسه ، وبالتالى تستمر تحيا وتتفاعل وتتحرك . وأى فرد فى أى جماعة إذا وجدت فيه ناحية تستحق الثناء فلابد ستوجد فيه ناحية تستحق النقد ، وإذا وجدت فيه ناحية تستحق النقد فلابد أن تجد فيه ناحية تستحق الثناء .



بصـــراحة .. نحـــن
نستعذب الشكوى

فليتهمنى البعض بأنى أتجنى وأطلق أحكاما عامة وآخذ المجموع بذنب أفراد .. ولكن الحقيقة أننا شعب كثير الشكوى . بدأت أومن بها وأنا أتصفح اليوم خطابات جاءتنى وأنا أجلس مع الزملاء فى الجريدة ، وأنا أقضى العيد فى البلدة ، وأنا فى الترام والأتوبيس وفى أى مكان . بدأت أومن أننا توصلنا لحل عبقرى يعفينا من مسئولية حل مشاكلنا بأنفسنا ، هو الشكوى منها والاكتفاء بالشكوى . بل لا مبالغة إذا قلت : إننا أدمناها واستعذبناها وأصبحت متعة أن يئن أحدنا للآخر بأنين أكثر استدرارا للدمع من أنينه .

إنى لأتساءل ماذا حدث لنا ؟.. المفروض أن الشكوى مثلها مثل البكاء علامة عجز كامل . والمفروض أن يحاول كل منا أن يحل المشكلة التى تواجهه بنفسه ، فإذا عجز استعان بأقرب الناس إليه ، فإذا عجز طلب العون من المعارف والمجتمع ، فإذا فشل هذا كله فى حل مشكلته كان له أن يشكو من الزمن والحظ ويتألم ، ولكننا نبدأ حل أى مشكلة بالعجز عن حلها بالشكوى منها .. فإذا فشلت الشكوى فى حلها رحنا نفكر فى أنسب شخص ممن نعرفهم لنعهد إليه بمهمة حلها ، فإذا لم نجد لجأنا ــ وأمرنا إلى الله ــ إلى أنفسنا لحلها . ونفعل هذا كله دون خجل أو حياء ، وكأنه ليس عيبا أبدا أن نحمل الآخرين آلامنا ومتاعبنا حتى ونحن ندرك أن لديهم هم أيضا آلامهم ومتاعبهم .. عملية تنصل مخجلة من المسئولية .. عملية لا يقوم بها إلا العبيد حين كانوا

يعتبرون أنفسهم غير مسئولين عن أنفسهم ، يعتبرون سيدهم فى الماضى ، والحكومة أو غيرها فى الحاضر ، هو المسئول عنهم وعن حل مشاكلهم ، فإذا لم نحل لهم المشاكل دون أن يحركوا ساكنا بكوا واشتكوا وطالبوا برفع الظلم .. ولماذا لا تتولون أنتم بأنفسكم رفع هذا الظلم ؟ لماذا تفعلون كالأطفال وتطلبون من غيركم أن يحقق لكم ما تريدون ؟ لماذا لا تحققون أنتم وبسواعدكم ما تريدون ؟

يقولون لك : حاولنا وفشلنا . طيب ، وما فائدة الشكوى إذن ؟ نحن نفضفض بها يا أخى .. أتريد أن ننفجر ؟ أجل هذا هو بالضبط المطلوب من أى إنسان مسئول عن نفسه ، أن يغتاظ فعلا ، لا إلى درجة الانفجار وإنما فقط إلى درجة أن يعمل ، بل حتى إلى درجة الإحساس بأن مشكلته لن تحل إلا إذا حلها هو بنفسه . هذا هو الفارق الدقيق الخطير بين الطفل والرجل ، بين الشعب المستعمر الذليل والشعب الحر المستقل . إنى لأسأل كل من سبق وبكى واشتكى .. ماذا فعلت الشكوى ؟ وأسأل كل من لا يزال يشكو .. أى كائن وهمى تطلب منه أن ينصفك ما دمت أنت لا تنصف نفسك وتنوح كالعجزة والأرامل على حالك ؟ لقد تحولنا إلى معارض متنقلة لـلأنين والشكوى . كل منا ينفرد بالآخر ليشكو همه ، ليشحذ منه بعض الرثاء ، كل منا يتشبث بالآخرين ويستصرخهم لحل مشكلته ، والآخرون يستصرخوننا لحل مشاكلهم ، والنتيجة أن يضمنا جميعا قيد الشكوى الذليل ويبقينا فى أماكننا .

نحن لا يمكن أن نقف كشعب ما لم نقف كأفراد ، ولن نقف كأفراد ما لم يؤمن كل منا أن باستطاعته أن يقف فعلا ، ويمشى ، ويخطى العتبة ، دون حاجة إلى دادة ، ودون حاجة لاستدرار عطف أناس أولى بالعطف .

زيارة السيد البدوى

ما كدت أصبح فى طنطا حتى فكرت بطريقة غريزية تلقائية فى زيارة السيد البدوى ، و لم أكن أتوقع أبدا أن أكتشف خلال الزيارة أعجب وأغرب معجزة عرفتها فى حياتى . والذى حدث أننى دخلت الضريح وملست على النحاس ، وقرأت الفاتحة وأنا أدور حول المقام ، تأملت النسوة المتعلقات بحلقات النحاس يستحلفن السيد البدوى فى همس مستميت ملح ، وطلبة الأزهر والتوجيهية وهم يذاكرون ويصلون صلاة حارة جدا هدفها النجاح لاريب ، وسرحت قليلا مع الضوء الكهربى الأخضر المنبعث من داخل القبة العالية ، والسقا الذى يوزع ماء من قربة غريبة الشكل . و لم يستوقف بصرى من هذا كله إلا نحاس المقام إذ كان ناعما جدا ومتآكلا بطريقة تدل على أن مئات الملايين من الأيدى لابد قد ملست عليه وتشنجت ممسكة بحلقاته .

وإلى هنا كدت أغادر المسجد وأنا غير راض تماما عن الصورة التى رأيتها مفضلا ألف مرة أن أحتفظ لنفسى بالصورة التى رسمتها للضريح فى خيالى ، لولا أنى تذكرت أنهم كانوا يقولون لنا ونحن صغار أن ضريح السيد البدوى يوجد به حجر مطبوعة عليه آثار أقدام النبى عليه السلام . والحقيقة أنى كنت — حتى وأنا صغير — لا آخذ هذا القول مأخذ الجد وأعتقد أنه مجرد خرافات وتهاويل . ولكننى قلت لنفسى أسأل . وسألت وإذا بى أفاجأ مفاجأة كبرى فقد كان الأمر صحيحا ، وفى ركن من الضريح كانت هناك حقيقة كتلة

ضخمة من حجر البازلت الأسود حولها حاجز حديدى سميك ومطبوع عليها آثار قدمين كبيرتين . وقفت مذهولا أرقب الجمع المتكاثر حول الحاجز ، جلابيب وبدل وملاءات سود وكل يحاول أن يدخل يده من حديد السور الضيق ويلمس الحجر ويتبرك به . وقفت مذهولا أستعد لأضخم تغيير سيعترى حياتى حين أنبذ كل علم أو منطق وأبدأ أومن بالخوارق والمعجزات . وأى علم ممكن أن يؤمن به وأمام عينيه آثار أقدام مطبوعة فى الصخر بقوة مهولة خفية ؟ يستطيع أن يمد أصابعه ويلمسها .. ويستطيع أن يلتقط لها صورا ويضع أصبعه فى عين كل من يحاول أن ينكر أو يكابر ؟

ولكن ، ربما بركة السيد هى التى دفعتنى لكى أزاحم وأقترب جدا من السور والحجر وأفحص آثار القدمين المطبوعتين . ولم يحتج الأمر فحصا أو تدقيقا ، فمن النظرة الأولى أدركت ألا معجزة هناك ولا يحزنون . فقد كان واضحا أن أثر القدمين مطبوع بفعل فاعل ، وأنه محفور فى الصخر بأزميل حفار بدائى واضح أيضا أنه لا يعرف الكثير عن شكل الأقدام وتشريحها .

واعترانى الغضب فقد أدركت أن هؤلاء الناس الطيبين المتزاحمين ، وكل الملايين التى زارت الضريح قبل هذا والذين سيزورونه هم ضحية خدعة ساذجة لا أعرف من تسبب فيها ولكنى أعلم تماما من يسأل عنها ، فإدارة الجامع الأحمدى أعتقد أنها موكولة لوزارة الأوقاف ، وأعتقد أيضا أنها المسئولة عن هذه المعجزة الزائفة وعن الترويج لها وعن إحاطتها بذلك السور الحديدى المتين .

وشىء غريب هذا ، وزارة الأوقاف التى تطلق آلاف وعاظها فى المساجد والقرى ينهون الناس عن الغيبة والتميمة والرجس الذى هو من عمل الشيطان ،

تستحل لنفسها أن ترتكب كبرى الكبائر وتبنى معجزة زائفة ليست من الإسلام فى شىء ، وتخدع بها ملايين البسطاء والسذج وتوهمهم أنها آثار أقدام الرسول ، وكأنها لا تدعو الناس للإيمان بنبوة محمد ﷺ على أساس أنه صاحب الرسالة المحمدية الخالدة ولكن لأنه الرجل الذى سار على الحجر فغاص الحجر بأقدامه ؟!

وشىء من اثنين : إما أن هذا الحجر معجزة حقيقية ، وعلى وزارة الأوقاف حينئذ أن تخرجه وتجند نفسها لعرض هذه المعجزة على سكان العالم أجمع باعتبار أنها شىء خارق للعادة ممكن أن تنسخ أى معتقد آخر وتغير تغييرا جذريا فى حياتنا وعلومنا ونظرتنا إلى الكون والواقع والمستقبل ، وإما أنها معجزة زائفة وفى هذه الحالة فلابد من محاكمة المسئولين عن هذه الخدعة الكبرى الذين غرروا بملايين القلوب الطيبة ، ولابد من توضيح حقيقة هذه « المعجزة » وإزالة ذلك الحجر من المسجد ووضعه فى متحف الحضارة الإسلامية على اعتبار أنه نموذج بدائى لفن الحفر على الصخر صنعه فنان مجهول فى أحد القرون الهجرية .

وقد يحدث هذا وتزيل الوزارة الحجر ، ولكنى أشك كثيرا فى قدرتها على إزالة « المعجزة » من أذهان الناس . فقد غادرت الجامع الأحمدى وصدرى يحفل بأحاسيس كثيرة أهم ما فيها هو تصورى لكم من ملايين الأيدى واللمسات استلزمها الأمر ليتحول السور الحديدى الذى حول قطعة الحجر ، ولتتحول قطعة الحجر نفسها إلى حرير ناعم . تصور جعلنى أدرك أن المعجزة الحقيقية ليست هى فى آثار الأقدام على الصخر ، ولكنها فى آثار ملايين الأيدى التى انطبعت على النحاس والحديد وبرته ونعمته . المعجزة الكبرى أيضا .. ملايين الناس حين تؤمن فتبرى بأيديها النحاس وحين لا تؤمن فلا يفلح فى ردها حديد ولا رصاص .

خســـارة
٨٠ مليـون جنيـه

بينما القاهرة تشوى سكانها على أحر نار ، كنا نحن فى بقعة أخرى من أرض مصر الحرارة فيها لا تفترق كثيرا عن الحرارة فى جهنم . ولأول مرة منذ أن وعيت بالعالم أحس به حارا إلى تلك الدرجة .. لأول مرة منذ أن عرفت الهواء أشعر به يهب ناريا لافحا لاسعا بمثل ما كنت أشعر به . كنا فى المنيا وهى أول مرة فى حياتى أهبط فيها أرض الصعيد ، وتشاء الحكمة أن أختار لهذا الهبوط أو الصعود يوما ضرب الرقم القياسى فى درجة لهيبه ، فكأنما جاء يوما صعيديا هو الآخر ، مغرقا فى صعيديته .

وكنت دائما أتلهف على رؤية الصعيد ليس رؤية عابرة من خلال قطار الأقصر وأسوان ، وإنما رؤية حضور واندماج وتأمل . وكنا أربعة فى الاستيشن واجن : الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة ، والدكتور رشوان فهمى نقيب الأطباء ، والدكتور حليم جريس أستاذ الجراحة بقصر العينى ، وكنت أنا معهم .

ومنذ اللحظة التى غادرنا فيها حدود القاهرة وأنا أتطلع بشغف زائد إلى الأرض والناس والمدن الصغيرة وكأنى فى طريقى لرؤية بلاد غريبة لم ترها عين قط ، نفس شغفى الذى أحسسته حين زرت أوربا لأول مرة . إن الصعيد له فى أذهاننا معان كثير ، وقد اكتشفت أنه ليس صعيدا واحدا وإنما « أصعدة » كثيرة . الصعيد الجوانى والبرانى وبحرى أسيوط وقبلى أسيوط والوسطانى .

وكلّ منها يعتقد أنه الصعيد الذى لا صعيد غيره ، على أية حال ومهما كان اسم البلاد التى كنا نراها فقد كانت بلادا مصرية ، وكانت جميلة رائعة الجمال .

أما المستشفيات التى بدأنا نزورها فكانت فى المنيا . وسواء أكانت مجهزة خصيصا للزيارة أم هو حالها الدائم فقد كانت والشهادة لله أنظف مستشفيات رأيتها فى مصر بما فيها مستشفيات القاهرة . وكان فيها — ويا للغرابة ! — زهور موضوعة فى الممرات ، وداخل هذه المستشفيات والوحدات الريفية كنا نجد زملاء وأطباء وممرات وحكيمات فى هذا القيظ الحارق ، شاعرين بدورهم مدركين أنهم يحاربون فى خط النار الأول ضد المرض حتى لو كانت الحرب تدور فى وحدات ضاربة فى بطن الجبل أو راقدة كالحمامة البيضاء على حافة الصحراء .

والسبب فى دقة إدارة هذه المستشفيات والوحدات بسيط جدا .. فاللواء عبد الفتاح فؤاد منذ عامين ضرب عرض الحائط بكل القوانين المالية السخيفة وأعطى المستشفيات والوحدات استقلالا ماليا ذاتيا ، وحين سألته عن نتيجة التجربة وعن عدد الاختلاسات أو السرقات التى حدثت بعد إطلاق الحرية فى التصرف قال لى : إنها خدعة .. لقد أفقدنا الاستعمار وأفقدتنا العقليات الرجعية الثقة فى أنفسنا حتى ظننا أننا مجموعة من اللصوص ، فى حين أن العكس هو الصحيح تماما ، فنحن مجموعة من المواطنين الشرفاء وإنساننا لديه كل مؤهلات الثقة ، ولم يحدث إطلاقا منذ أن منحت المستشفيات حرية التصرف فى ميزانيتها حادثة مخلة واحدة ، فى حين أن النتيجة كانت أن الروح ردت إلى هذه المؤسسات فأصبحت بدلا من الخوف تعمل ، ومن التهرب من المسئولية تتحمل المسئولية ، ومن الشكل المظهرى تؤدى للمواطنين خدمة

حقيقية . إنه عمل شجاع ذلك الذى قام به عبد الفتاح فؤاد ، وهو ليس الوحيد فى أكثر الأعمال الشجاعة التى وجدتها هناك ، وآخرها ذلك الذى قام به المحافظ لمقاومة البلهارسيا .

حقائق رهيبة :

والمواطنون لديهم حساسية من ذكر الأمراض وخاصة ذلك المرض اللعين البلهارسيا . إن القراء فى المدن لا يهمهم ذلك المرض كثيرا إذ ما دام الواحد منهم يعتقد أنه سليم فما معنى أن يقرأ عن مرض لا يهمه أمره ؟ ولكن الحقيقة عكس هذا ، فالبلهارسيا تهمنا جميعا كمصريين ويكفى أن نذكر حقيقة بسيطة عنها لكى ندرك أهميتها .. فالبلهارسيا مثلا تجعلنا نخسر كل عام ما قيمته ثمانون مليونا من الجنيهات ، والمواطنون المصابون بها فى ريفنا ينزفون كل عام ما مقداره حوالى اثنين وعشرين مليون لتر من الدم كل عام ، وكأنها دماء أربعة ملايين مواطن نفقدهم كل عام .. بمعنى آخر نحن لا يمكن مهما صنعنا وأممنا أن نبنى الاشتراكية وأن نضاعف الدخل القومى ، ونحن نخسر سنويا ٨٠ مليون جنيه ، وشعبنا ينزف اثنين وعشرين مليون لتر من دمائه كل عام .. والمشكلة الأكبر أننا بعد تحويل رى الحياض إلى الرى الدائم — ذلك الذى سيبدأ منذ هذا العام — ستدخل ديدان البلهارسيا إلى الصعيد الجوانى ، وسيصاب نتيجة لهذا أقوى عمال لدينا أولئك الذين بنوا عماراتنا ومدننا ، وأولئك الذين يبنون سدنا العالى ، ولقد ذكر لى صديق أن السد العالى لو كان يبنى فى وجه بحرى بعمال من بحرى مصابين بالبلهارسيا حتما ، لما أمكن بناؤه .. فالبلهارسيا تفقد الإنسان نصف طاقته وقدرته على الإنتاج ، بحيث لا يمكن لعامل حتى لو كان صعيديا من سوهاج أن يحمل نفس القدر من

المونة الذى يحمله كل يوم ، وأن يصعد به كل تلك السقالات والسلالم .

لهذا فالبلهارسيا ليست مشكلة طبية وليست مشكلة اجتماعية أو إنسانية فقط ، ولكنها أساسا مشكلة سياسية اقتصادية من الدرجة الأولى .. أهم بكثير فى رأيى من المعادلة الصعبة ، وأهم من الحديث عن الإسراف .. مشكلة وطنية قومية لابد لها من حل حاسم وجاد وسريع .

ولست أعرف ما السبب ولكننا تعودنا أن نظل نترك المشاكل تعالج نفسها ،لا نحاول أن نبذل لها من تلقاء أنفسنا حلا حتى تلتفت إليها الدولة بكل ثقلها ، وصحيح أن الحل النهائى لمشكلة البلهارسيا والأمراض المتوطنة بشكل عام مسألة تحد حضارى وانتقال المجتمع من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى ، ولكن هذا الانتقال نفسه لن يتم إلا بالقضاء الجزئى على عدونا المرض الأول .. البلهارسيا . ولهذا فمن واجبنا كدولة وشعب — وأساسا كما قال مرة الرئيس جمال عبد الناصر كاتحاد اشتراكى — أن نعلن الحرب على البلهارسيا . إن الصين استطاعت بواسطة حزبها أن تقضى ليس على البلهارسيا .. وإنما على الذباب تماما .. فى أكبر دولة فى آسيا ، فمسألة القضاء على الذباب أو محو الأمية ليست عملا إصلاحيا أو اجتماعيا .. إنه عمل سياسى وحضارى من الدرجة الأولى . ولهذا فلو حشد الاتحاد الاشتراكى قوى لجانه حول مشكلة متبلورة — كمشكلة البلهارسيا — لأمكن حتى للوحدة « العقائدية » أن تتم ربما من خلال مزاولة تجربة كتجربة حشد المواطنين وتوعيتهم لمنعهم من تلويث الترع والمجارى المائية . فالإنسان كما يقول الدكتور أحمد الجارم سكرتير جمعية مقاومة البلهارسيا هو الذى يعدى القواقع ، أى هو الذى يتولى بنفسه عدوى نفسه وإصابتها ، والقضاء على البلهارسيا معناه ببساطة أن نمنع إنساننا من القضاء على نفسه وعلى غيره من المواطنين .

أغــرب مــؤتمر :

فى الساعة السابعة مساء والجحيم المضىء بالنهار قد تحول إلى جحيم مظلم ، أو بسبيله إلى الإظلام ، انعقد فى قرية بنى عبيد ـــ إحدى قرى محافظة المنيا ـــ مؤتمر شعبى بحضور وزير الصحة ومحافظ المنيا ونقيب الأطبـاء والدكتور أحمد حافظ موسى أستاذ طب الأمراض المتوطنة ووكيل جمعية مكافحة البلهارسيا ، لمناقشة أخطر مشروع تبنته المحافظة والمنطقة الطبية لتطبيقه فى خمس قرى لاستئصال البلهارسيا منه . صحيح كانت هنـاك الهتافات التقليدية مثل أى مؤتمر سياسى ، ولكنى فرحت أن يحتشد لمناقشة البلهارسيا كل هذا العدد من المواطنين الفلاحين أبناء القرية والقرى المجاورة ، وليس هذا غريبا فقد ذكر لى الدكتور إبراهيم يس عوض أن عدد المترددين على وحدات البلاد بلغ ٩٠ فى المائة من المواطنين .. وهى نسبة عالية جدا لا يمكن أن تخطر على البال ، فالتردد على الوحدات أو المستشفيات من تلقاء النفس ودون قسر أو إرغام مسألة ليست سهلة فى ريفنا ، ولكن الفلاح يدرك بغريزته أن الدم الذى ينزفه كل يوم مسألة خطيرة لابد من إيقافها ، وهو يرحب بكل جهد يبذل فى سبيل علاجه والمحافظة على صحته . إن المشروع يتلخص فى علاج المرضى ومنع العدوى . وصحيح أن أحد تلك الإجراءات هو إقامة حمامات سباحة ليعوم فيها أطفال القرية ، ولكنى أرى أن هذا الإجراء مضحك إلى حد ما ، إذ لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام وأنا أرى حماما تكلف ألفين من الجنيهات فى قرية . ولكنها كما ذكر لى الدكتور أحمد حافظ موسى مجرد تجربة . أعتقد شخصيا أنها لن تنجح .. فالحمام صغير « ١٠ × ٤ أمتار » والأولاد يفضلون الترعة حيث يمكنهم السباحة دون

عائق . ثم إننا لن نستطيع خلال العشر أو العشرين سنة القادمة أن نوفر ألفين من الجنيهات لكل قرية لنقيم فيها حماما للسباحة ، وأولى بنا أن ننفق نصف هذا المبلغ أو ربعه على عملية توعية المواطنين أنفسهم وجعلهم يتولون بالوعى حراسة مائهم أن يلوثه طفل أو مريض .. ولكنها تجربة أعتقد أنه أولى ألا ننتظر نتائجها وقد آن الأوان لنلتفت بكليتنا إلى دمائنا التى تنزف ، وأكبادنا التى تتلف ، وبطون مواطنينا التى تنتفخ ، وأورام السرطان التى تصيبهم . إننى أضع أمامنا كشعب وكاتحاد اشتراكى هدفا محددا وسريعا .. أن نقوم بحملة واسعة النطاق ضد البلهارسيا ، وأن نتولى القضاء عليها فى عام أو عامين . وقد يبدو هذا إسرافا فى الخيال ولكن الحقيقة المذهلة أن البلهارسيا وغيرها من الأمراض الطفيلية هى الأمراض الوحيدة التى يمكننا القضاء عليها تماما بإرادتنا ، فقط بمجرد إرادتنا أن نقضى عليها ، فكيف نتردد فى هذا ؟ كيف تعتبر كارثة القطن التى خسرنا فيه ٧٠ مليونا من الجنيهات كارثة لا زلنا نندبها ، فى حين أننا نخسر كل عام وبتهاوننا أكثر من ثمانين مليون جنيه ؟ كل الفرق أننا لا نشعر بها ولا نحزن من أجلها .



تعـــلموا
كيـف تصـبحون عـربا

سمعت وقرأت أن كبار مطربينا وملحنينا بدءوا يفكرون فى الخروج من النطاق المحلى الضيق ـــ أى النطاق العربى ـــ إلى النطاق العالمى الواسع ، وذلك بترجمة أغانيهم العربية وأدائها بلغات أوربية .

والغريب أن تصدر فكرة كهذه عن أناس مفروض أنهم أكثرنا معرفة بالغناء والموسيقى ، إذ فاتهم أن الغناء ليس كالأدب أو الأبحاث العلميـة أو الحديث اليومى معان ممكن ترجمتها إلى لغة أخرى . الغناء لغة فى حد ذاته . لغة مثلها مثل اللغة المكتوبة مستمدة من تاريخ كل شعب وملايين العوامل التى أثرت فى تكوينه . كل الفرق أن اللغة المكتوبة ترسم على الورق ، واللغة المغناة تؤدى بالآلات والحناجر . وكما أن من المستحيل ترجمة حرف الضاد إلى لغة أخرى ، فكذلك من المستحيل أن نترجم أى حرف من حروفنا الصوتية إلى أى لغة أخرى . مستحيل كاستحالة ترجمة الجبة والقفطان مثلا إلى ملابس أوروبية ، واستحالة أن نترجم اسما كـ « بهية » إلى الفرنسية . إذ حتى لو فرضنا جدلا أننا وجدنا الكلمات التى نترجمه بها ، فهل الأثر الذى يحدث للفرنسيين لدى سماعه ممكن أن يشبه من قريب أو بعيد الأثر الذى يحدث فينا لدى سماعنا « يا بهية وخبرينى ع اللى قتل يس » ؟

** ** **

نحن عرب والإنجليز إنجليز ، لأن لنا خصائصنا ولهم خصائصهم . وغناؤنا أحد خصائصنا ، ولا يمكن أن نصبح عالميين بترجمة خصائصنا العربية إلى خصائص إنجليزية ، لأننا بهذه الترجمة نلغى خصائصنا .. نلغى كياننا . ولا يمكن أن نصبح عالميين ونحن بلا كيان . تماما كالزنجى الذى يسلخ جلده ويركب لنفسه جلدا أبيض ليصبح عالميا فتكون النتيجة أن يصبح مسلوخا مشوها . الأغنية الهندية لم تصبح عالمية لأنها ترجمت ، ولكن لأنها ظلت عريقة فى هنديتها .. والعالم كله يحبها لأنها هندية ، ولأنها مؤداة باللغـة الأردية . بل الإعجاب يبلغ بها أحيانا حد أن يحفظ الناس كلماتها ويرددوها وهم لا يفهمون معناها .

إذا أردتم أن تصبحوا عالميين فتعلموا كيف تصبحون عربا . إزدادوا محلية وقومية تزدادوا عالمية . كفوا عن الجرى وراء الشكل الأوربى السطحى وغوصوا فى أعماقنا نحن أكثر .. لتعبروا عنا أكثر ، لتغنوا آمالنا وأحزاننا وحبنا بعمق أكثر ، وبأشكال من صميم كياننا ، افعلوا هذا نتول نحن رفعكم أكثر وأكثر حتى يراكم العالم كله .



هـل الفـن
خـرفة الشـواذ ؟

بعض الناس يأخذون الفن بسهولة ويعتبرونه حرفة أخرى مثلا أو نوعا راقيا من التخريف والتهريج . كل ما فى الأمر أننا نطلق عليه أسماء براقة مثل الخلق والإبداع ، ونحيط الفنان بهالة تعطيه مظهر العلماء والمفكرين . وأنا نفسى يراودنى هذا الاعتقاد أحيانا . ولكن بين كل حين وحين يصادفنى حادث أو أقابل إنسانا ، وإذا بى أرتد بسرعة وأدرك مذهولا أن الفنان حقيقة إنسان خارق للعادة . وأن الفن حقيقة إبداع عمالقة وخالقين .

من هذا النوع حادثان هامان وقعا لى وبالصدفة كان بطلهما شخصا واحدا ، ولحسن الحظ أنه معروف مشهور . الحادث الأول وقع من ثلاث سنوات حين قررت فرقة المسرح القومى أن تمثل لى روايتى « ملك القطن وجمهورية فرحات » وكان الأستاذ فتوح نشاطى المخرج قد أسند دور فرحات للممثل فاخر فاخر ، وكانت أول تجربة لى فى المسرح وكنت غير مهتم بها اهتماما جديا أول الأمر ، ولكن بمضى الأيام والبروفات بدأت أحيا التجربة بكل كيانى ، وبدأت أعصابى تدق فى انتظار الافتتاح . وتصوروا مبلغ الصدمة التى تصيبنى حين أذهب إلى المسرح قبل عرض الرواية بيوم واحد فأعلم أن والد فاخر فاخر قد توفى .. والد البطل الذى يحمل الرواية كلها فوق كتفيه . والدور كوميدى وحفظه واستيعابه مسألة لا يمكن أن تستغرق أقل من أسبوعين .

كانت معرفتى بفاخر لا تتعدى حدود علاقة مؤلف الرواية بممثلها ، ولكنى كنت قد فقدت أبى أنا الأخر من شهور قليلة ولا أزال أحيا بآلام فقده .. و لم أبحث عنه لأعزيه فقد كنت على يقين أنه سافر إلى البلدة ليحضر المأتم ويتلقى العزاء . كل ما فعلته أنى ذهبت إلى الأستاذ أحمد حمروش مدير الفرقة وطلبت منه تأجيل عرض الرواية إلى أن تندمل جروح فاخر البطل . ولكنى فوجئت به يؤكد لى أن فاخر لم يسافر وأنه هو شخصيا وزملاءه ألحوا عليه أن يذهب ، ولكنه رفض رفضا باتا وأصر على أن يبقى حتى يتم عرض الرواية فى موعدها . و لم أصدق حتى وأنا أحادثه بالتليفون وقلت له لعله يحزن لفقد أبيه مثل حزنى لفقد أبى ، ولكنى وراء الكواليس ليلة الافتتاح قابلته ، كان صوته مبحوحا وكانت عيناه محتقنتين والسواد يغمره ، وعرفت أننا كلنا أمام فقد الآباء والأمهات سواء حتى لو بلغنا السبعين ، نحن نحزن عليهم بأمر مما يحزن به الصغار .

وعصف بى الضيق لمحنة الرجل من ناحية ولمحنتى الخاصة من ناحية أخرى ، محنتى التى سأواجهها حالا حين يرتفع الستار الذى يفصلنى عن جمهور مترقب متحفز — إذ كانت الليلة التى يدعى إليها النقاد . صحيح طالما قرأت فى المجلات أن بعض ممثلينا اجتازوا محنا كهذه وهم على خشبة المسرح ، وأضحك بعضهم الجمهور بينما كان يعانى من فقد ابن أو أب .. لكنى كنت أعتقد أن أشياء كهذه كلام مسل لا يصلح إلا للقراءة فى المجلات ، فدور فرحات دور صعب ، والسيطرة عليه عمل شاق لا يمكن أن يقوم به الممثل إلا وهو بكامل قواه وموهبته ومزاجه .

المفـــاجأة :

اعتقدت أن الرواية « طارت » تماما و لم أعد آبه لأى شىء ، فقد فتح الستار وبدأ فاخر يتكلم ، وخرج صوته ضعيفا مشحونا بالتأثر والألم ، وانهرت على قطعة أكسسوار وأنا ألعن الليلة والمسرح والأنانية التى تدفعنى لأن أطلب من إنسان فقد أباه بالأمس أن يضحك لى بروايتى جمهور خلى الهم والبال . ولكنى لا زلت للآن لا أعرف ما حدث بالضبط ولا كيف حدث ، فلقد أفقت فوجدت المسرح يضج بالضحك ، وما كاد هذا يحدث حتى وجدت فاخرا لم يعد فاخرا الذى كنت أعزيه من هنيهة ، كان قد أصبح فاخرا آخر .. فرحات الحقيقى كما تخيلته ، بل شيئا أكبر من فرحات . فى الواقع كان قد أصبح كل شىء فى المسرح وفى الصالة ووراء الكواليس وحتى داخل نفسى . لو طاوعت انفعالى ساعتها لبكيت كالأطفال ، ولكنى تماملت ومضيت أتفرج وقد نسيت الرواية والموقف ، و لم يعد أمامى إلا هذه المعجزة التى حدثت وخلقت من الكائن الحزين هذا الفرحات الذى يعيشنى ويبهرنى .

أية قوة جبارة استطاع بها فاخر أن يتحول هذا التحول ، وينتقل بها من إنسان لإنسان ! تساؤل ظل أياما كثيرة يحيرنى .

أخيرا قلت لنفسى :لماذ لا يكون السبب هو الفن ؟ لماذا لا تكون المعجزة هى فى قدرة الفنان الخارقة على الإخلاص لعمله ؟ لماذا لا يكون « الفن » هو « قمة الإخلاص » لأى عمل ، مهما كان نوع العمل ؟

لا يصـدقه العقـل :

والحادثة الثانية وقعت بالأمس .. كلنا لابد قد قرأ عن مرض فاخر

الأخير وإرساله للعلاج فى لندن على نفقة الدولة ، أنا الآخر قرأت عن هذا ولكنى بينى وبين نفسى لم أكن أعتقد أبدا ، أن حالته تستدعى إرساله للندن للعلاج أو عمل عمليات جراحية . فالذبحة الصدرية معروفة يمرض بها الآلاف فى بلادنا ، ويعالجهم أطباؤنا ببراعة لا تقل بأى حال عن براعة الأطباء فى الخارج ، والعلاج معروف حتى لغير الأطباء ، بضعة أدوية توسع الشرايين والراحة التامة .

بنفس هذه الروح قابلت فاخر بالأمس بعد عودته ، وكان اللقاء حافلا خاصة حين طلبت منه أن يشرح لى بالدقة والتفصيل كل ما حدث من لحظة أن غادر أرض الوطن . وبطريقته الخاصة فى الحديث مضى يذكر لى كل كبيرة وصغيرة . حتى مبانى مستشفى « هامر سميث » وصفها ، وجودوين عالم الأمراض الباطنية ، وكليفلاند الجراح ، وحتى التمرينات الرياضية التى أجريت له عقب العملية لم يفته منها شىء . والحقيقة أن ما رواه لى أزعجنى ، وحين اطلعت على التقرير الطبى عن حالته انزعجت أكثر ، فالعملية التى أجريت له « استئصال العصب السمبتاوى من الجهتين » .. عملية خطيرة جدا خاصة إذا استؤصل العصب من ناحيتى الصدر مرة واحدة بحيث لا ينجو منها إلا اثنان مثلا أو ثلاثة من خمسة . ولم يكن هذا بالضبط هو سبب انزعاجى . السبب أن التقرير ذكر أن العلاج بالأدوية والعقاقير كان يكفى وحده لشفاء المرض ، ولكن العملية أجريت تحت إلحاح المريض وإصراره وبعد أخذ إقرار عليه بأن المستشفى غير مسئول عن النتيجة .

وقلت لفاخر منفعلا :

ـــ لماذا لم تكتف بالأدوية والراحة وعرضت نفسك لهذه العملية الوعرة ؟

فقال :

أمال أنا كنت مسافر ليه ؟ ما هنا الدكاترة قالوا لازم أستريح ، وما قدرتش .
كنت أرقد أسبوع واللا أسبوعين وبعدين أرجع أمثل تانى فـأصاب بنكسة . أنا كنت عايز علاج باتر بحيث يشيل حكاية الراحة دى ويسمح لى بالتمثيل على المسرح .

قلت مذهولا :

— يعنى أصريت على إجراء العملية الخطيرة دى بس علشان يسمح لك بعدها إنك تمثل ؟

قال ببساطة وكأنه لا يدرك خطورة ما يقول :

— أيوه !.

قلت باستنكار :

— اسمح لى ده جنون .. كان ممكن تموت ببساطة .

— اسمع .. الأعمار بيد الله .. وتفتكر إيه فايدة إنى أعيش من غير ما اقدر أقف على خشبة المسرح ؟ دانا حتى جيت بسرعة علشان أدخل المسابقة .

ألم أقل لكم إن الفن هو قمة الإخلاص ؟ أتعرفون قمة أخرى للإخلاص لأى عمل ، قمة أخرى غير تعريض النفس للموت المعقم .. الموت الذى لا يزال هناك جرحان طويلان رهيبان يمتدان بطول ظهره وكأنهما آثار أظافره البشعة ، تعرض لهما فقط لكى يصبح باستطاعته أن يمثل ؟ أهناك قمـة أخرى ؟!



« الراهب » والمسيح المصرى

والأجراس لا تزال تدق احتفالا بأعياد الميلاد ، والأمانى تداعب الصدور ونحن على أبواب عام جديد ، يخرج علينا الدكتور لويس عوض بمسرحيته الأولى « الراهب » فينقلنا بأستاذيته وبراعته إلى عالم غريب جديد تماما ، لأنه قديم تماما قدما كاملا .. من اللحظات الأولى التى بدأت أقرأ فيها المسرحية وجدت شعورا فياضا يجتاحنى ، نفس الشعور الذى راودنى حين زرت مقابر الفراعنة فى الضفة الغربية للأقصر ، ووجدتنى بعد بضعة أمتار قطعتها فى الدهاليز الرهيبة التى نحتها أجدادنا بعناد وإصرار منقطعى النظير فى باطن الجبل وقلب الصخر وأقاموا داخلها عالما كاملا على أمل أن يصحو الميت ليحيا فيه ، بنفس الرهبة والاندهاش والتوجس مضيت أقرأ مسرحية أستاذنا الدكتور لويس ، وشيئا فشيئا أحس أنى أغوص فى بطن التاريخ وأمتزج امتزاجا وجدانيا كاملا مع مصر القديمة التى تحاول أن تجد ذاتها بين مصر الرومانية ومصر المسيحية ومصر الوثنية . تحاول أن تجد مصر المصرية . ست ساعات قضيتها أقرأ مأخوذا « بالجو » أكاد لا أرى من خلاله شيئا ، ثم بعد أن بدأت أتبين وأخرج من دوامة الغرق فى عشرات الأسماء والمواقع والمواقف والتفصيلات ، إلى الدرجة التى لا أستطيع فيه التمييز بين أبو نوفر الراهب البطل ولوشيوس دوميتيوس دوماتيانوس الشهير بآخيل وروستيكان وأفريكان وديوجين ..

.. إلى أن انتهيت وأسدلت آخر ستار ، وبعدها وقعت فى الحيرة العظمى .

فالراهب عمل مسرحى عملاق ومن صنع أستاذ ! بحر متلاطم الأمواج بالأحداث والمواقف والأقوال يرتفع أحيانا إلى ذروات شكسبيرية ويغوص فى أحيان إلى رمزيات برخت . فى أحيان « أبسنى » عقلانى محض وفى أحيان وجدانى بدنى « تنيسى » . ولكن المشكلة ليست فى هذا ، المشكلة الحقيقية هى فيما يهدف إليه لويس عوض بهذه الارتدادة الفنية العملاقة . لقد عودنا كتاب المسرح الكبار حين يرتدون إلى التاريخ أن يفعلوا هذا لكى يناقشوا مثلا مشكلة معاصرة فى ثوب تاريخى ، أو لكى يفسروا واقعة تاريخية على ضوء جديد ، أو لكى يمجدوا بطولة نسيها التاريخ وداستها عجلاته فى المسرحيات . وأشهد أنى حاولت بكل جهدى أن أعثر فى قراءاتى الثانية للمسرحية على رمز كامل محدد فلم أوفق . كلما أمسكت بخيط وقلت إن المؤلف لابد يقصده تولى المؤلف نفسه إفلات الخيط من يدى وناولنى خيطا آخر لا يلبث أن يضيع . وأشهد أنه كان يقدم لى خيوطا كنت أحيانا أرفضها وأرفض تصديقها وأرفض أن تكون وجهة النظر الضيقة تلك صادرة عن أستاذ أو من أن صدره يسعنا جميعا وخلق من أجلنا جميعا ، فالكاتب حين يكتب يصبح أكثر إنسانية ورحابة من الكائن الإنسانى العادى الذى يحيا بيننا .. ولويس عوض فى حياته العادية إنسان رحب مثقف مستنير ، بل يكاد يكون قديسا . وبعض الخيوط التى رفضتها لا يمكن أن تكون أبدا من صنع قديسين .

وشىء آخر أحب أن أضيفه .. ثمة وجهة نظر تبدو فى مؤخرة الصورة الشاملة الكاملة لمصر تحت الحكم الرومانى .. ثمة محاولات تدل على طموح مصر والمصريين إلى السيطرة على الدولة الرومانية كلها ، ومن ثم حكم

العالم .. ثمة محاولات تكاد تشير إلى أن من مصر نبعت المسيحية وسقط شهداؤها ، بل يكاد الدكتور لويس عوض يقولها صراحة على لسان أبا نوفر الراهب فى هذيانه : يا إلٰهى .. لماذا نزلت فى بنى إسرائيل و لم تنزل فى هذا الوادى المقدس ؟ محال أن يكون المسيح يهوديا .. الله نزل فى مصر .. الله نزل فى مصر ..

وكأن الدكتور لويس عوض قد عز عليه هذا ، فآثر بعد عشرين قرنا من ميلاد المسيح أن يعيد صياغة التاريخ ، ويقدم لنا مسيحا آخر فى شخص الراهب أبا نوفر .. مسيحا مصريا يبشر بالعدل فوق الرحمة ، مسيحا يحكم ويسوس ، ثم فى النهاية يصلب نفسه بالسم لأنه — كالبشر — أخطأ ، وكالبطل الدرامى يجب أن يكفر عن خطيئته بالموت ؟!

أم أراد أستاذنا الدكتور أن يولى وجهه هذه المرة عبر البحر الأبيض ويقضى على خرافة الشرق ويثبت أننا عمود من أعمدة الحضارة المسيحية الأوربية ، بل نحن أصل هذه الحضارة . أو كما يقول الإمبراطور قسطنطين الرومانى فى المسرحية : لن أعود إليكم حتى أجلس على عرش أبى كونستانس النبيل وأحكم بالحق والعدل من بريطانيا إلى أسبانيا ، وأسترد عرش روما الذى اغتصبه السفاح مكسيميان ، ثم أطرد العبد دفكانوس من بيزنطة المجيدة عرش أمى القديسة هيلانة المصرية ، وبعد أن أوحد العالم تحت صولجان واحد أنقل عاصمة ملكى إلى الإسكندرية وألبس تاج أجدادى الفراعنة .

حيرة شديدة توقعك فيها هذه المسرحية الخطيرة .. قد تقبل رموزها وقد ترفضها ، ولكنك أبدا تحترم كاتبها وتغتفر له هذه المؤخرة التاريخية الأكاديمية التى لم أجد لها داعيا على الإطلاق .. تحترم كاتبها وتحس أن دافعه

لكتابة ما كتب مثل رائع ، بطله الراهب الذى أخذ مصر عقيدة وإيمانا وجعل من نفسه مسيحها الأحق .. دافعه هو حبه الشديد لمصر .. حب أقوى من الموت وأقوى من الحياة وأقوى من الفن والفكر .. إذ هو حب يدفع الدكتور لويس ويدفعنا لأن تصبح هذه الغايات كلها وسائل لتجسيد ذلك الحب وفرضه والتبشير به .



الرجـل والمثـل

لا شك أن الأدب العربى خسر فى العقاد كاتبا عملاقا ساهم فى نقل العقلية الأدبية العربية من عصورها المظلمة الوسطى إلى العصر الحديث بعلمه ونوره وإدراكه . كان الأدب العربى قبل العقاد وعميد الأدب العربى الحديث طه حسين يعتمد على اللفظ فأصبح له معنى . وكانت قدرة الكاتب تقاس بمقدار ما حفظه ويستطيع تطبيقه من ألفية ابن مالك .. فأصبحت قدرة الكاتب تقاس بما يستطع العقاد أن يهدم شوقى ولكنه استطاع أن يهدم الأسس التى تمثل نفس الدور فى الشعر فارتطم بشوقى .. بآخر أجيال المدرسة الشعرية القديمة ، كما ترتطم مدارس الغناء الآن بأم كلثوم . ولم يستطع العقاد أن يهدم شوقى ولكنه استطاع أن يهدم الأسس التى قام عليه شعر شوقى ، وهكذا انتقل شعرنا من الكلاسيكية إلى الرومانسية .

وكان العقاد أول كاتب عربى يدرك أن الأدب ليس حرفة ، وأن الأديب ليس عمله أن يقرأ كتب الأدب واللغة فقط .. إنما الأديب موسوعة علمية أدبية إنسانية متحركة . وهكذا ثقف العقاد نفسه بل بالغ فى هذا حتى احترف القراءة احترافا ، وبذلك ضرب للجيل الذى تلاه مثلا ، وأصبحت « الثقافة العامة » هدفا فى حد ذاته من أهداف الكتابة والكتاب .. وأعترف أنى لم أقرأ كل ما كتبه العقاد . ولكن الكتب التى قرأتها أثبتت لى أن العقاد المؤلف كان مشغولا طول الوقت بمحاولة إثبات وجوده فى بيئة أدبية لم تكن تعترف له

بحق الوجود . كان مشغولا بأن يتفوق على مدعى التفـوق وفى صميم تخصصهم مشغولية منعته أن يبلور عمله واطلاعه وتجاربه فى نظرية كاملة متكاملة ، أو فى رأى يتبناه ويضيف به جديدا ويبشر به .

لقد فجعت بوفاة العقاد مرتين .. مرة لأنه مات وتهاوت بموته قمة من قممنا الأدبية القليلة ، ومرة ثانية لأنه مات دون أن أراه أو ألقاه ودون أن أعرف العقاد الإنسان بعد أن عرفت العقاد الكاتب . بل ربما هذه المعرفة الأخيرة نفسها هى التى حدت بى إلى تجنب لقائه ، فقد كان رحمه الله يحمل للجيل الجديد عصا غليظة طالما لوح بها فى وجههم . وخطئى الذى لم أدركه سوى الآن أننى كنت مثل غيرى أعتقد أنها عصا من سنط وشوك وحديد ، فى حين أنها لم تكن إلا عصا الجد أو الأب المشفق دائما ، الخائف أبدا أن يعهد بتركته إلى أجيال مهما بلغ علمها فهى فى نظره جاهلة ، ومهما بلغ عمرها فهى فى نظره غير مسئولة ، ومهما بلغت قدرتها فهى فى نظره أقل مما يجب وأضحل مما يجب .

ولقد مات العقاد الرجل ولكن العقاد المثل لن يموت . سيظل إلى الأبد حيا فى الأذهان .. العقاد الجرىء المؤمن بقلمه وبرأيه ، العنيد فى الحق الواثق تماما من دوره وقدرته . سيظل حيا حتى بعصا الأب يلوح بها فى الوجوه ويحنق ولا يعترف .. حيا يدفع الأجيال المتتالية الجديدة لا أن تحتذى حذوه وتصبح النسخ المكررة منه وإنما لكى تصبح نفسها . لكى يصبح كل كاتب عقاد نفسه . لكى يبلغ ما بلغ ويعرف ما عرف ويدرس ما درس ويحقق بوجوده ما حقق .

★ ★ ★

(بصراحة غير مطلقة)

الكاتبــة البرجــوازية
التى لا تؤمن بالتعايش السلمى

ــ أجل يا زميلى العزيز أنا سن هوين ، أو الدكتورة إليزابث كورانجا كومير إن شئت الدقة ، التى اشتهرت عندكم بمؤلفة قصة « روعة الحب » التى لا أعتبرها أحسن ما كتبت .. فليس أشهر ما تكتبه هو دائما أحسن ما تكتبه . وأنا ممن يدعونهم اليورجينز Eurasians باعتبارى مولدة نصفى أوربى ونصفى صينى ، وأنا فى الحقيقة لا أعتبر نفسى كاتبة . أنا طبيبة أطفال أقيم الآن فى اتحاد الملايو وأعتبر هناك واحدة من الجالية الصينية الغنية .

خذ كلامى إذن على اعتبار أنى « بورجوازيــة » صينيــة وكاتبــة رومانسية ، كما قال عنى وفد الصين الشعبية فى مؤتمر الكتاب الأفريقى الآسيوى الذى لم يسمح لى بحضوره إلا بصفة مراقبة . وزيادة فى الاحتياط اعتبرت نفسى ولا أزال أعتبرها مجرد سائحة . واسمح لى أن أحتج على الأسئلة التى دأب شبانكم الصحفيون على توجيهها إلىّ ، ما رأيك فى سارتر وساجان ومورافيا ؟ فلقد دأبت على إجابتهم أنى لم أقرأ لهؤلاء ولن أقرأ لهم ، فأنتم هنا تهتمون بأوروبا أكثر من اللازم ، وتتابعون أخبارها وكأنكم جزء منها . أتعرف ماذا صدمنى فى القاهرة ؟ أوربيتها الزائدة عن الحد . لم أكن أتوقع هذا أبدا ! إنك من القاهرة لا تحس بأفريقيا أو بآسيا ، البيــوت والأثاث والمآكل والملابس وطريقة الحديث كلها أوربيــة .. فقــط بعــد

تأمل دام بضعة أيام اكتشفت أنكم من الداخل مختلفون لا تزال أعماقكم سليمة ، وحينئذ عرفت أن الاتجاه إلى أوربا اتجاه من السطح ليس إلا . إن الحضارة الأوربية ليست سوى أسلوب واحد من أساليب كثيرة للتحضر والحياة ، وأن نترك أسلوبنا الأصيل ونتبنى أساليب الغير تبنيا أعمى شيء يضرنا ويمسخنا . لن نكون أنفسنا إلا إذا حاولنا بجهد ومشقة أن نكون أنفسنا . أنا لم أقرأ لسارتر وساجان ومورافيا وليس مهما أبدا أن أقرأ لهم . أكثر أهمية أن أقرأ لكتاب من كوريا والجزائر ومصر . ولست أقرأ لهؤلاء فقط كنوع من التحيز الآسيوى الأفريقى ولكن أيضا لأتعلم أساليب جديدة رائعة أصيلة فى التعبير الفنى ، فمشكلتنا الكبرى أننا غير واثقين بأنفسنا ، لا نجد العظمة إلا فى كل ما هو أوروبى . وإذا نظرنا إلى أنفسنا لم ننظر بأعيننا نحن وإنما استعرنا مناظير أوروبية نرى بها بعضنا البعض . إن حضارتنا عريقة جديدة تضرب بجذورها فى بطون التاريخ ، ومن واجبنا أن نؤمن أن حاضرنا لا يقل عراقة عن ماضينا ، وأن تخلفنا فى التكنيك وفقرنا لا يعنى أن أرواحنا هى الأخرى وأحاسيسنا وطرقنا فى التعبير متخلفة . بعضنا يعتقد أن « العالمية » لا يمكن الوصول إليها إلا بالتتلمذ على حضارة أوربا واستيعابها جيدا ثم سبقها بعد هذا ، وفى رأيى أننا نفعل خيرا من هذا لو كففنا عن دراسة أوربا والتفتنا إلى أنفسنا نحن ، إلى مشاكلنا نحن وقضايانا . وأرجوك ألا تحدثنى وكأنى مواطنة عالمية .. حدثنى باعتبارى مواطنة فى اتحاد الملايو الواقع فى جنوب شرق آسيا والذى يعانى من مشاكل وقضايا سببها وراعيها الاستعمار الأوربى .. إن مشكلتنا الرئيسية نحن المثقفين فى آسيا وأفريقيا أن معظم عقولنا ليست سوى نسخ بالكربون لعدة كتب أوربية إلى درجة أن بعضهم يعتبر الجهل بالثقافة الأوربية جريمة كبرى ، فى حين أن الجريمة الأكبر أن نكون جاهلين

بثقافتنا نحن وأنفسنا . لندع أوربا ومشاكلها تنتظر قليلا ونشغل أنفسنا بأمورنا ومشاكلنا . الجريمة الكبرى أن يكون المواطنون فى آسيا وأفريقيا يعرفون أدق وأحدث أخبار مارلين مونرو ، وتفصيل ما حدث فى افتتاح مسرحية ساجان الأخيرة ، بينما هم لا يعرفون شيئا عن الدكتور اجوستيفو نيتو . أتعرف من هو نيتو هذا ؟ إنه قائد الجبهة الوطنية التى تحارب الاستعمار البرتغالى فى معركة أنجولا التى لا نسمع عنها سوى أقلَ القليل . هذه هى مأساتنا . وخذنى مثلا .. لقد جئت إلى القاهرة أحمل معى مشكلة حادة ملتهبة هى مشكلة الساعة فى آسيا بجنوبها وغربها وشمالها وشرقها ، مشكلة التعايش السلمى الذى ينادى به الاتحاد السوفيتى . أتوافق عليه ؟ أترى أنه من الممكن أن تتعايش دولة عمال وفلاحين مع دولة تعادى العمال والفلاحين ؟ هل بالإمكان أن يتعايش الاستغلال مع الاشتراكية ، أم لابد أن يستمر الكفاح ولا يهمنا شيء ، حتى تتحرر كل المستعمرات وحتى تتحقق الاشتراكية ؟

أرجوك ، هذا مجرد رأيى الخاص باعتبارى « بورجوازية » و « سائحة » وليس لى أى اعتبار آخر . هكذا قرر مؤتمركم . هذا رأى الصين الشعبية أيضا .. هذا صحيح وأنا لا أخفى تعلقى بالصين الشعبية وبسياستها رغم كل شيء ، رغم كل ما تقوله أنت من أن الوفد الصينى أصر على عدم الاعتراف بى كعضوة فى المؤتمر باعتبارى بورجوازية رومانسية . أنا بورجوازية رومانسية ولكنى لا أومن بنداء التعايش السلمى بين الظلمة والظالمين ، بين إيريان والاستعمار الهولندى وأنجولا والاستعمار البرتغالى والصين الشعبية وشيانج كاى شيك . اشرب قهوتك قبل أن تبرد وقل لى رأيك ، أريد أن أعرف رأيك فقد جئت هنا لأعرف آراءكم وأفهمها وأتعلم منكم . اليوم بالذات ذهبت لمقابلة شيخ الأزهر لأنى أريد أن أدرس الدين الإسلامى العظيم وأعرف

جوهره ومبادئه ، فهم عندنا فى جنوب شرق آسيا يستعملونه كسلاح ضد الوطنية والاشتراكية مع أن دراستى العامة له أقنعتنى أن مبادئه تبشر بالعكس وتقف تماما مع حرية الشعوب وحقها فى الحياة الكريمة . ولم أعجب حين عرفت أن الرجعية العربية المتعاونة مع الاستعمار فى بلادكم تستعمل دينكم العظيم بنفس الطريقة وكأنها خطة استعمارية واحدة . ألم أقل لك إن الاستعمار يرانا كوحدة .. ككل ويستعمل لمحاربتنا نفس الأسلحة ، ونحن نترك قضايانا الأساسية ونتعبد فى أوربا ونتنسم أخبارها ونحلم ؟



قصــة بطلهــا
توفيـق الحـكيم

أمس كنت أقلب فى كتبى وإذا بى أعثر على كتاب « مسرح المجتمع » لتوفيق الحكيم . والكتاب ضخم ومجلد بغلاف فاخر وكان ثمنه أكثر من جنيه .. ومع هذا فقد تلقيته كهدية من الأستاذ توفيق الحكيم . فتحت الصفحة التى كتب فيها الإهداء وقرأت كلماته وكدت أضحك .

فالأستاذ توفيق الحكيم ليس حريصا فقط على نقوده وكتبه ولكنه حريص أيضا على كلماته ، فهو يهدى كتبه إلى قلة قليلة جدا وينتقى كلمات الإهداء بعناية شديدة وكأن أحدا سيحاسبه عليها .. وهذا الحرص فى رأيى أحد خصائص توفيق الحكيم التى لا أملك ولا يملك أحد إلا أن يحبها . وأنا أحب توفيق الحكيم ، أحبه كإنسان وكفنان وأحب ما يكتبه ، حتى هذا الذى لا يعجبنى أحبه وأحس أنه شىء لابد منه . أحس أنه الظلال الغامقة التى لابد منها لكى تتكامل لوحة توفيق الحكيم الرائعة .

بل حدث مرة أنى من كثرة حبى له وإعجابى به فكرت أن أؤلف عنه قصة .. ليست قصة تصور مكانته الأدبية ، أو تجسده حيا كامل القسمات ، ولكنها قصة حب ، قصة من القصص التى يحلو لنا أن نؤلفها عن الناس كتعبير غير مباشر عن حبنا لهم .

وحدث فعلا أنى كتبت القصة ، كتبتها لنفسى بلا أية نية

لنشرها أو حتى قراءتها لأحد ، ولكنى ذات يوم وأنا جالس مع الأستاذ توفيق فى ركن هادئ من أركان المجلس الأعلى لرعاية الفنون حكيتها له .

وضحك لها كثيرا وقال :

ـــ يعنى بقى ما لقيتش إلا أنا تعملنى البطل .

قال هذا وسكت ، ثم ضحك وأردف :

ـــ إنما تعرف بينى وبينك ما حدش ينفع لها إلا أنا . الناس متصورانى كده وأنا كده فعلا .

وقلت له :

ـــ أعتقد أنها لا تصلح للنشر .

فقال :

ـــ أبدا .. ولازمته إيه ؟ إنما يعنى برضه .. يعنى وماله ؟ ما تنشرها . اكمن بطلها أنا ؟ هو لازم البطل يعنى يكون عويس واللا محروس . ما احنا برضه ننفع أبطال ، مش كده واللا إيه ! لا .. إذا كنت عايز انشرها .

كان هذا من شهور مضت .. وكل شىء بأوان كما يقولون . وها هى القصة :

الـكابوس

تصورت أن الأستاذ توفيق الحكيم صحا من نومه فى الأسبوع الماضى وهو يكاد يختنق من كابوس مخيف . كان جالسا كعادته على قهوته المفضلة فى الإسكندرية لا به ولا عليه ، والدنيا صيف وعصرية ، والجو جميل يغرى بالسرحان أو على الأقل يتأمل الحسان ، وإذا بأحد معارفه يطب عليه فجأة ..

سلام عليكم . سلام ورحمة الله . اتفضل . قعد الرجل ودون انتظار لصفقة توفيق الحكيم صفق هو وجاء الجرسون .. هات شيشة .. جاب شيشة . فرد القادم « اللى » وبالكاد جذب أنفاسها وأشعلها ، وإذا بصديق آخر يطب .. سلام عليكم .. سلام ورحمة الله .. وقعد وجاء الجرسون .. تشرب إيه ؟ قهوة .. يدوبك شفط شفطتين وإذا بقادم آخر جاء وسلم وصفق وطلب ، ورابع وخامس وسادس وعاشر والقعدة تكبر وتكبر والأستاذ توفيق يشرق ويغرب ويتحدث بحماسه المعهود عن الأدب والفن ووكلاء النيابة والمجمع اللغوى وأزمة النقد والنقاد ، ورغم حماسه الشديد فأهم ما كان يشغله فى ذلك الوقت هو الكوب الزجاجى الفارغ الذى يضع فيه الجرسون ورق الحساب إذ كان قريبا جدا منه ، وكلما تضخم عدد القادمين كان ورق الحساب يتضخم هو الآخر ، ودقات قلب توفيق الحكيم تزداد ، فهو متأكد طبعا أنه لن يدفع كل الحساب ، ولكن وجود هذه الكومة الضخمة من أوراق الحساب قريبة جدا منه خطر على أية حال .. أو هو على الأقل وضع غير مريح بالمرة . وعلى هذا فطوال حديثه عن الأدب والفن كان الأستاذ توفيق الحكيم مشغولا بزحزحة الكوب بدفعات خفيفة غير ملحوظة أحيانا ، وبنظراته وبعينيه أحيانا أخرى حتى تصبح المسافة بينه وبين الكوب مأمونة ، مأمونة بالقدر الذى لا يسمح لأبرد جرسون أن يأتى ويقف على رأسه ساعة الحساب ..

ولكن ساعة الحساب جاءت ، وجاء الجرسون الخواجة بسمنته ، وسترته البيضاء المتسخة ، وهليهليته الإجريجية المعهودة وتناول الأوراق وظل يحسب كمسة وكمسة أشرة .. ستين ونس .. تسعين — ميه وكمسه .

وطبعا كان الأستاذ توفيق لا يلقى للرجل ولا لحسابه بالا كثيرا . فهو

كان قد أخذ واحد قهوة بشلن . فقط كان ينتظر أن يحاول أحد الجالسين دفع الحساب كله فيحتج هو ويصر على أن يدفع حسابه على الطريقة الإنجليزية .

ولكن أغرب ما فى الأمر أن الجرسون انتهى من حساب فاتورته ووقف ينتظر الدفع دون أن يتحرك واحد من العشرة الجالسين أو يبدو عليه أنه يهم بدفع الحساب .

قال الأستاذ توفيق لنفسه لابد أنهم متشاغلون ، فلأتشاغل أنا الآخر . وفعلا سرح وسهم ، وانتابه ذهول فنى حاد وراح يلعب عصاه ذات اليمين وذات اليسار ، أن أحدا من حضرات الجالسين يتحرك من رابع المستحيل . بل حدث ما هو أكثر . الجرسون اللعين اختاره دونا عن بقية الجالسين وتسمر أمامه وأبى أن يتلحلح ومضى يدعى مسح الترابيزة ويوجه لتوفيق الحكيم نظراته الجرسونية المعروفة التى لا تعنى سوى شىء واحد : إيدك بقى ع الحساب .

وأحس الأستاذ توفيق الحكيم أنه أمام مؤامرة خبيثة واسعة النطاق يشترك فيها هؤلاء العشرة الجالسون والجرسون والقدر ، وتريد دفعه إلى أن يتحمل هذا الحساب وحده وسواء أراد أم لم يرد .

وانتاب توفيق الحكيم غيظ شديد .. لقد كان مستعدا أن يتحامل على نفسه ويدفع ثمن مشروب آخر . أما أن يتحمل حساب عشرة أناس لا يعرفهم طبوا عليه هكذا فجأة وطلبوا عشرة طلبات ، ثمن الواحد منها لا يقل بالبقشيش عن العشرة القروش برزالة ودون أن يعزم هو أو يطلب ، وتأتى ساعة الحساب فيلمون هكذا ويجلسون كالجثث المحنطة ، فأمر يفجر الدم من الشرايين .

اغتاظ الأستاذ توفيق جدا وأحس بالضيق يكتم أنفاسه حتى كاد يبكى كالاطفال ويقول : والله مانا دافع .

والمصيبة أن المشهد طال وزاد عن حده ، الجرسون واقف يتململ ويتمحك ولا يحول أنظاره عنه ، والجالسون متشاغلون وكأنهم ليسوا هنا ، وهو محرج حرجا شديدا لإحساسه بأنه مطالب وحده بالدفع ، ويقينه من أن شيئا كهذا لا يمكن أن يحدث حتى ولو شنقوه ، والوضع لا حل له ومع هذا فهو مستمر ، وكأن ثمة قوى كونية غامضة قد أوقفت الزمن عند تلك اللحظة الحرجة وأبت عليه أن يتحرك .

وبدأ الأستاذ توفيق يختنق .. الغيظ بدأ يضع أيادى حقيقية تلتف حول عنقه وتمضى تضغط وتضغط حتى لقد بدأ جسده يتفصد عرقا ، وبدأ يتأزم وينتفض ويحس أنه حالا سيموت .. وأخيرا جدا ، وبصعوبة شديدة ، بدأ يحس وكأن الروح تعود ، ووجد نفسه يرى ، وكان ما رآه ظلاما ، وحين أوقد النور وجد نفسه فى حجرة نومه حيث لا قعدة ولا جرسون ولا حساب .. ولم يصدق أن ما حدث لم يكن إلا حلما مزعجا إلا بعد أن قام وتحرك وأشعل النور وأطفأه مرات ليتأكد .. وتأكد حينئذ أن ما حدث كان مجرد كابوس كاد يقضى عليه . وعلى الفور أحس براحة حقيقية تتصاعد من صدره وانتابه فرح غامر وكأنه أخذ البراءة أو نجا من موت محقق ..

وحينئذ فقط استعاذ بالله من الشيطان الرجيم حتى لا يتكرر الكابوس ، وقرأ آية الكرسى زيادة فى الاحتياط ، وغير الجنب الذى كان ينام عليه وأراح رأسه من جديد على المخدة ثم ابتسم ابتسامة كلها سعادة ونشوة .

وفى براءة الأطفال نام .



قابلت سارتر
فى « الكافتيريا »

قاعة « الكونزرت هاوس » فى فيينا . مؤتمر وناس قادمون من جميع أنحاء العالم ولجان تجتمع وتتخاصم ، وحركة دائبة فى القاعة الكبيرة والمسارح الصغرى الملحقة بها . مدخل القاعة مزين بأعلام جميع الدول والشعارات الزرقاء وملابس الرجال والنساء كأنها كرنفال ، والوجوه والملامح متحف حى متحرك يعرض صورا للإنسان فى كل مكان من قشرة الأرض .

قرأت اسم سارتر ضمن المشتركين فى المؤتمر ، دخلت أتفرج . طلبت على سبيل المزاح من سكرتيرية المؤتمر أن أقابله وأعطيت اسمى باعتبارى كاتبا من مصر . محاولة لم أكن جادا أبدا فيها و لم أعتقد أنها ستنجح ، تركتها وظللت أدور فى المدخل والقاعة وأتفرج على الوجوه والأجناس واللغات وأسمع بشغف صوت المذيعة فى إذاعة المؤتمر الداخلية وهى تقول كلما بدأت الكلام « آختونج . آختونج » ومعناه انتباه انتباه . صوتها قوى وعميق ويحبب الأذن فى الألمانية . استغرقنى التفرج ومحاولة معرفة ما يدور فى المؤتمر حتى نسيت كل شىء عن سارتر والمقابلة . ولكننى فوجئت بصوت المذيعة الألمانية الحلو ينطق مرة اسما خيل إلى أنه اسمى . بل تأكدت . المذيعة

(*) ٢٠ يناير سنة ١٩٦٠

الإنجليزية ما لبثت أن قالت : يوسف إدريس يقابل ج. ب. سارتر فى الكافتيريا .

شملنى اضطراب عظيم وخفت . كنت فى السادسة والعشرين بالكاد نشرت قصة أو قصتين ، مالى أنا ولسارتر العملاق ؟ فكرت فى التراجع ولكنى وجدت نفسى أبحث عن الكافتيريا . وطال بحثى و لم أتصور أبدا أن يكون مكانها تحت خشبة المسرح مباشرة . سألت الجرسون عن سارتر ، أشار إلى منضدة يحتلها رجلان أحدهما ضخم أحمر الوجه فاخر الثياب جميل التقاطيع ، والثانى قصير ربع أحول منظاره من نوع عتيق رخيص .. تقدمت من المنضدة وقلبى يدق ، خفضت رأسى ومددت يدى بعصبية للرجل المهيب وقلت : مسييه سارتر ؟ حملق فىّ الرجل بهدوء ثم أشار بابتسامة إلى الرجل القصير الجالس بجانبه وقال بالفرنسية : هذا هو . الواقع بهت وخاب أملى ، و لم أعتقد أبدا أن رجلا هذا شأنهلو رأيته فى أى مكان آخر لخيل إلى أنه مدرس أحياء فى مدرسة أهلية مصرية ، هو العظيم سارتر . ولكنى سلمت وقدمت نفسى ، وقال الرجل كلاما فرنسيا كثيرا لم أفهم منه إلا أنه يقول أنه سارتر . أما الرجل الجالس معه فهو الكاتب الروسى الكبير إليا آهرنبورج .. انقلب اضطرابى إلى فزع ، يا لى من أحمق ! أطلب مقابلة على سبيل العبث وإذا بى مرة واحدة فى حضرة اثنين من عمالقة الفكر العالمى ، وأجلس معهما ، وألمس أيديهما وأكلمهما ويعاملاننى كزميل لا يفرقه عنهما إلا فارق السن !

وربما الفزع هو الذى دفعنى للاستهتار بالموقف كله ، ودفعنى لخوض مناقشات لا قبل لى بها ، كنت أطمن نفسى وأقول فليكونا عمالقة فى كل شيءولكنكأنت الآخر ياولدتعرف أشياءلايعرفانها،على الأقل تعرف الإنجليزية

التى لا يعرفها سارتر نفسه ، وتعرف العربية التى لا يعرفها إهرنبورج ..

أنا مضطر أن أتخطى أشياء كثيرة جدا دارت وكانت جديرة بالذكر لأصل إلى المناقشة . ويا لها من مناقشة يحسدنى عليها أنيس منصور . أنا أناقش سارتر فى الوجودية بينما يقوم إيليا آهرنبورج بدور المترجم !

قلت : أنا للأسف لم أقرأ من أعمالك إلا مسرحيات الحائط : ولا مفر ، والأيدى القذرة ، ومجموعة قصص قصيرة ..

قال بدهشة ونوع من الفرحة : قرأتها ؟ قرأتها حقيقة ؟ فى القاهرة ! بأية لغة ؟

قلت : بالعربية والإنجليزية .

قال : جميل جدا ، هل تهتمون بها لديكم ؟ .. ماذا يقولون عنها ؟ .. وما رأيك أنت فيها ؟

قلت لنفسى : حتى سارتر هو الآخر يصنع مثلنا وينتظر بشغف آراء الآخرين فى أعماله .

وقلت له : أعمال رائعة كلها .. أذهلتنى .

قال : ماذا أعجبك فيها ؟

قلت : هل تريد الحقيقة ؟ أعجبتنى لما فيها من فن وليس لما فيها من رأى . إن فيها فنا مذهلا رائعا هو البطل المجهول المتواضع الذى يختفى وراء الكواليس ليترك الفلسفة والآراء تقف وحدها أمام المتفرجين وتحظى بالمجد والتصفيق ..

إنى لأتساءل : ماذا يسعد رجلا عظيما مثلك ؟ أن يقرأك الناس ككاتب أم كفيلسوف ؟

ضحك وقال : أعتقد أن الإنسان يسعد لمجرد أن يقرأ الناس إنتاجه سواء

أكان فنا أم فلسفة .

قلت : إذن أحيانا يكون النعيم هو رأى الآخرين .

وضحك آهرنبورج أولا ، وحين ترجمها أغرق سارتر فى الضحك إذ أن له رأيا وجوديا مشهورا يقول إن الجحيم هو الآخرين .

وجرأنى الضحك فقلت : الواقع لو كان وجود الآخرين يخلف التعاسة التى صورتها لقتلنا بعضنا بعضا من زمن بعيد ، لابد هناك أشياء أخرى لم نذكرها هى التى أبقتنا أحياء فى مجتمع واحد .

قال : يعجبنى أن شابا غربيا مثلك يناقشنى بلا حذر أو اصطلاحات فلسفية، بالتأكيد هناك أشياء لم تعرف بعد .

قلت : وقد تغير رأيك إذا عرفت نظرتنا إلى الوجود والإرادة المستقلة ..

قال : وقد تغير . ممكن . ممكن جدا .

قلت : لماذا لا نعتبر أى فلسفة إذن مجرد نظرية نتركها تتصارع مع غيرها من النظريات والاكتشافات ، بلا تعصب ، ودون أن نحاول أن نقيم من أنفسنا محامين لهذه النظرية ومدافعين عنها . فالتعصب لهذه الفلسفة أو تلك ممكن أن يعوق وصولنا إلى الحقيقة .

قال : ولكن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها إلا بصراع ، والصراع لا يمكن أن يتم إلا بين متعصبين ، فاعتناق النظريات والدفاع عنها يقربنا من الحقيقة ولا يبعدنا عنها .

قلت : الصراع بين الوجودية والاشتراكية مثلا أيقربنا من الحقيقة ؟

قال : طبعا .. على شرط ألا يتم الصراع فى قلب الشارع . أقصد الصراع بين المفكرين الواسعى الأفق .

قلت : مجرد تساؤل قد يكون سخيفا ، ولكنى أرجو أن يسمح لى به أعظم

كاتب اشتراكى وأعظم كاتب وجودى ، الوجودية تعتبر الفرد مسئولا عن اختياره وتصرفاته ومصيره ، والاشتراكية تعتبر المجتمع هو المسئول . أليس من المحتمل إذن أن تنشأ فى القريب نظرية ثالثة تجمع الوجودية والاشتراكية وتملأ الفجوات وتفسر بدرجة أوضح وتحدد بدرجة أدق حركة الفرد بالنسبة لحركة المجتمع ، والعلاقة بين الوجود الفردى والوجود الجماعى ؟

تولى آهرنبورج الترجمة على دفعات كان يعقبها بابتسامات تخيلت أنها ابتسامات استخفاف . ودار بينهما نقاش بالفرنسية .. خفيف ضاحك أول الأمر ، ثم شابه بعض الجد والتأمل فى النهاية . وأخيرا قال آهرنبرج :

ــ صديقى سارتر وأنا مبتهجان لرأيك .. ولكن لا تنتظر منا أن نفكر فيه جديا ، فإلغاء الوجودية إلغاء لسارتر ، وإلغاء الاشتراكية إلغاء لى ، فهل أنت قادم من القاهرة لتلغى المعارك الطويلة التى خضناها وتلغى وجودنا كله بجرة قلم ؟

الحديث دار فى أحد أيام يناير من سنين ، لا زلت أذكره ، ولا زلت كلما أحسست ببرد يناير تذكرت فيينا وأدق تفاصيل ذلك اللقاء .



كامــل الشــناوى (*)

خطر لى خاطر عجيب وأنا جالس تضمنى تلك السهرة الجميلة التى يعقدها الأستاذ كامل الشناوى فى مكتبه كل مساء .

فالأستاذ كامل على الرغم من قلبه الكبير الذى يسع الفن والفنانين جميعا ، وموهبته التى تحيل الشعر إلى شيء ساحر يخطف الأبصار والعقول ، حتى عقول أعداء الشعر أنفسهم .

وعلى الرغم من أنه أروع محدث وأكثر الناس ظرفا ولباقة وكياسة ، إلا أنه يتمتع بخاصية غريبة قد لا يصدقها أحد .. ذلك أنه يخاف من الموت . وكلنا نخاف الموت ، ولكن الأستاذ كامل يخاف منه خوفا حقيقيا لا هزل فيه ، خوفا يجعله يعامل الموت كما لو كان عدوا شخصيا له من دم ولحم يتربص به لينتهز الفرصة المناسبة وينقض عليه ، وقد يرى البعض أن هذه نقيصة ، ولكن الواقع أن أستاذنا كامل الشناوى أحالها إلى ميزة كبرى . وإليكم ما يحدث :

هو لا يستيقظ فى العادة قبل العاشرة ، وأول ما يفعله إذا استيقظ أن يقرأ جرائد الصباح ، ويقرأها بالمقلوب بادئا بصفحة الوفيات ليطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام ، وأن عدوه اللدود الموت لم يختطف أحدا ممن يعرفهم أو له بهم صلة .

(*) ٢٢ يونية سنة ١٩٥٦ .

ولكن معارف الأستاذ كامل كثيرون جدا ، ولهذا فلابد أن يجد أن أحدهم قد مات أو على الأقل يحتفلون بذكرى أربعينه . فى الحال يتولاه انزعاج عظيم ، انزعاج يزوده بطاقات نشاط لا حد لها تجعله يغادر الفراش ويرتدى ملابسه على عجل ويترك البيت ، ولولا شبح عدوه اللدود ما كانت قوة فى الأرض تستطيع أن تجعله يغادر الفراش المريح .

يهبط الأستاذ كامل من المنزل ويتخفف من إحساسه بالمسئولية تجاه من مات ، فيرسل تلغراف عزاء أو باقة زهور ليجنب نفسه مشقة السير فى الجنازة .. يتخفف لأنه يعتقد أن ذلك الشخص الذى مات راح ضحية بريئة لعدوه هو ، ولهذا فهو يعد نفسه مسئولا أمام ضميره عن ضحايا عدوه .

ولا يطمئن الأستاذ كامل إلا حين يرى الناس فى الشارع رائحين غادين لا يخطر لهم الموت على بال ، ولكن اطمئنانه لا يطول إذ ماذا يحدث لو خطر ببال عدوه البغيض أن ينفرد به وسط الشارع وهو وحيد بين أناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ؟ لابد إذن من البحث حالا عن الأصدقاء فبينهم يستطيع أن يطمئن على نفسه . وهكذا .. النائم من أصدقائه يوقظه ، المريض يزوره ، والبعيد يدق له تليفونا . ولابد أيضا من العمل ، فالإنتاج هو المصل المضاد للموت . والعمل كثير .. عمل فى الجمهورية ، وقصائد يلح عبد الوهاب فى طلبها ، ويوميات ، وكتاب بدأه من سنين ولا يريد أن ينتهى . ويبدأ كامل الشناوى يكتب ، ويمسك القلم بيده السمينة الحنونة ويملأ الصفحات ، يبدأ الكتابة وفى ذهنه الخوف من الموت . ولكنه لا يلبث أن يغرق فيما يكتبه .. ولا تخرج الكلمات من قلمه كلمات .. بكل شاعريته يملؤها سحرا ومرحا ويودعها روح الحياة وكأنما يتحدى بها خوفه وخوف الناس من الموت .

وحين ينتهى يكون المساء قد حل ، فلا يكاد يبدأ يحس بالوحدة ومن

ثم بالانزعاج حتى يبدأ الأصدقاء والمعارف والزملاء يتوافدون على مكتبه . ومن تلك الساعة يتحول مكتب كامل الشناوى إلى تلك المدرسة الفكرية التى تدخلها فارغا وتخرج منها مكهربا كالبطارية التى أعيد شحنها . كامل الشناوى جالس يتحدث ويفكر ويسخر ويناقش ، صوته فيه كل قوة الحياة وجسده فيه كل سخائها وعقله يعمل فى دقة الجهاز الثمين ويخرج الآراء ويلقى بالمقترحات .

ومن اختلاف الآراء وتشعب الجدل تتضح عشرات الحقائق وتنبت فى ذهن كل كاتب أو فنان ألف فكرة وفكرة ، وينسى كامل الشناوى كل شىء إلا أنه يزاول أحب عمل إليه ، يتحدث إلى أناس يحبهم ويتحدثون إليه أحب حديث ، حديث الفن والسياسة والأدب .

ولكن الليل يمضى ويتسلل الجالسون واحدا وراء الآخر كالمذنبين تتبعهم سخرية كامل الشناوى وعجبه من قدرتهم الخارقة على النوم المبكر ، إذ كيف يستطيعون النوم والدنيا مليئة بأجمل شىء فيها .. بليلها ؟

ولكن جلسة المناقشات ما تكاد تنتهى حتى تبدأ جلسة الحلقة الضيقة من الأصدقاء ، الموسيقى والأضواء الخافتة وصوت عبد الحليم وألمعية عبد الوهاب ، والضحكات .. ضحكات هو محدثها ولولاه ما كانت ، ضحكات يعبر بها عن فرحه بالحياة ونشوته بالوجود مع أحباب ، ضحكات وكأنما يدرأ بها عن نفسه وعن أحبابه وعن الناس جميعا كل ما تبقى عالقا بذهنه من شبح ذلك العدو المبين الذى طارده منذ الصباح .

ويظل الأستاذ كامل محاطا بالأصدقاء الأحياء حتى ينام ، وينام وصخبهم وضجيجهم لا يقلقه بل لولا ضجة أصدقائه ما نام وكأنها الموسيقى الحية التى لابد منها لينام على وقعها كل مساء . يرشفونها أروع مذاقا من قهوة

الصباح ، بينما آلاف القلوب والعقول تقرؤه وتحبه وتحب الحياة وتتـزود لخوض معركة النهار .. يكون الأستاذ كامل يقرأ جرائد الصباح هو الآخر ، ويكون أول ما يقرؤه فيها هو صفحة الوفيات . وكالعادة أيضا لابد أن يكتشف أن أحد أصدقائه أو معارفه أو زملائه القدامى قد مات ، ويبدأ شبح العدو ينتصب أمامه ، فيتولاه الانزعاج ، ويغادر الفـراش على عجــل . ويسرع ليقذف بنفسه فى بحر الأصدقاء والناس والإنتاج ، يريد أن يهرب من الموت فيخلق حياة .. أروع حياة ، تحبيه وتحبب معه الأصدقاء والناس فى الحياة ..



قنطرة الذى كفر

ليلة الأمس أمضيتها مع رواية فريدة فى أدبنا العربى كله . الرواية كتبها أستاذ له فى كل فرع من فروع العلم والمعرفة باع ، و لم أكن إلى اليوم أعتقد أن له فى الكتابة ليس هذا الباع الطويل فحسب ولكن الباع الأصيل . لقد ذهلت وأنا أطالع صفحات الرواية القليلة (١٠٧ ص) من القطع الصغير . قرأت الرواية كملازم خارجة من المطبعة فى جلسة ، واحترت قليلا من يكون هذا الكاتب العملاق الذى كتب هذا العمل ؟ فقد دق الباب ، وفوجئت بساع يحمل لى حزمة الملازم وأفتش فى الملازم عن اسم للمؤلف فلا أجده .. لا أجد إلا مقدمة صغيرة فى صفحة واحدة مفادها أن الموضوع عاش مع الكاتب ثلاثين عاما وأنه لولا نصيحة من الأستاذ محمد عودة ما كان قد أقدم على كتابته .

وحاولت الاتصال بعودة فإذا بعودة فى كوبا مع مؤتمر التضامن ، وإذا بى وليس أمامى إلا نص من مؤلف مجهول .. قرأته فأصبت بالذهول كما قلت ، فهذه الرواية القصيرة هى أروع ما كتب فى رأيى عن ثورة ١٩ إذا نحينا جانبا عودة الروح لأستاذنا توفيق الحكيم ، والجزء الخاص بالثورة فى ثلاثية كاتبنا الكبير نجيب محفوظ . ولكن المشكلة فى هذه الرواية الفريدة أنها لا تتحدث عن ثورة ١٩ متعمدة عامدة كما حدث فى عودة الروح وثلاثية محفوظ .. إن الحديث عنها يأتى هكذا تلقائيا من داخل نفوس أبطالها ولا يملى عليهم من خارجها ، أو توضع الثورة عن عمد هندسى داخل الرواية . وأبطال

الرواية أغرب ، فهم سكان « ربع » من الأرباع القائمة فى المنطقة المسماة « تحت الربع » ، وهم بائع صعيدى سريع (كالشعراء فى حيه) ، وبنت تخدم فى المنازل ، وأمها العمياء ، ورئيس كناسين فى التنظيم ، ونجار ، وخريج دار علوم لا يجد عملا . وفى الوقت الذى تفور فيه البلاد بالثورة هو مشغول بتدبيج قصيدة لرئيس الوزراء الجديد يمدحه فيها ويلعن الوفد كى يرسله فى بعثة لدراسة الفلسفة فى فرنسا . نفس هذا الانتهازى الوصولى ينتهى بأن يصبح من تنظيم الوفد السرى وينتهى كمكافح إرهابى يغتال الإنجليز بالمسدس ، وقصة حب .. أعظم وأروع ما قرأت من قصص الحب الشعبية بين « سيدة » ذات الثمانية عشر ربيعا والتى تبدأ بأن تصب الماء ليتوضأ الشيخ عبد السلام قنطرة خريج دار العلوم وتتسبب فى توهانه عن الصلاة وعن الله ، وبين أحمد ابن النجار الذى مات بالشوطة وظلت سيدة فى عقدة ذنبها من أنها « قرفت » منه ، حتى انتحرت بثمانين قرصا من الأدوية المنومة حين افترسها نجيب باشا عاصم نفس رئيس الوزراء الذى كان يدبج له الشيخ قنطرة قصيدته ، والذى أرسله بالفعل حين نشرت الأهرام قصيدته فى بعثة إلى فرنسا . عالم غريب رهيب عالم الربع هذا ، وببراعة أصيلة .. براعة — على ما أعتقد — مؤلف الرواية الواحدة تلك التى تحدث التغييرات الخطيرة فى الأدب فى معظم الأحيان ، يرسم الكاتب صورا غريبة وكأنما لعالم خاص مسحور ، وكل هذا بلغة عامة لا تحس للحظة واحدة أنها عامية أو أنها غريبة لا على البيئة ولا على الصور الفنية .. أدق وأروع ما يمكن أن يصل إليه قلم فنان .

حيرتنى الرواية وقرأتها مرة أخرى غير مصدق ، وأخيرا تذكرت أن الأستاذ أحمد طه كان قد حدثنى فى التليفون وأخبرنى أنه سيرسل لى رواية للدكتور مصطفى مشرفة لأراها وأقرأها قبل أن تنشر ، ومنذ بضع سنوات

عرفت الدكتور مشرفة وهو شقيق عالمنا الكبير الذى فقدناه الدكتور على مصطفى مشرفة ، عرفته للأسف وقد أصابه نوع من الالتهاب المفصلى الذى جمد مفاصله كلها ، حتى مفاصل فقرات رقبته فأصبح لا يستطيع أن يتحرك أو يتحرك أى جزء من أجزاء جسده وإنما هو ينام مستلقيا ليل نهار . فإذا عنت له بعض الخواطر أملاها على أحد الأصدقاء أو على زوجة مخلصة من أخلص الزوجات فى العالم على ما أعتقد . فهى رغم شبابها قد وهبت نفسها تماما له ولمطالبه عارفة مقدرة محبة للعبقرية الكامنة فى هذا الجسد الذى أجبره المرض على الرقاد . إنى أعرف الدكتور مصطفى مشرفة وأعرف أنه من عائلة مشرفة إحدى العائلات « الأرستقراطية » فى دمياط ، فكيف يمكن أن يتأتى للدكتور مصطفى أن يكتب عن شعبنا ، عن أقل الدرجات فى شعبنا ، بكل هذا الصدق والروعة والجمال ؟ إن هذا لمما يناقض تماما ما ورد فى ميثاق المثقفين من أن أصل الأديب ينضح على إنتاجه ، باعتبار معظم الكتاب والفنانين من الطبقة الوسطى .. وها هو يكتب عن الشعب ، عن أقل الدرجات فى شعبنا الكادح بما لا يستطيع أن يفعله عامل أو فلاح حتى لو أوتى ثقافة جوركى وتولستوى .

أما قنطرة الذى كفر فهو لم يكفر أو شيئا من هذا القبيل ، وإنما هناك وصلة نابعة من درب الجماميز كان اسمها « قنطرة كفاريللى » وهو اسم عالم صاحب الحملة الفرنسية — على ما أعتقد — فقلبها الناس إلى قنطرة اللى كفر ، ثم إلى قنطرة الذى كفر . وحيث أن أحد أبطال الرواية اسمه الشيخ عبد السلام قنطرة فقد جاء الاسم من هنا ، وجاء ليضيف بعدا سحيقا إلى الرجل باعتباره قنطرة فعلا وقنطرة الذى كفر بالثورة ليعود يؤمن بها .

إن هذه الرواية على ما أعتقد ستكون حدث عام ١٩٦٦ الأدبى ، رغم أن كل عتبى على كاتبها أنه تعسف فى إنهائها ربما لإحساسه أن قارئه لن يتابعه . ولو عرف أن القراء كانوا على استعداد لمتابعته لمئات الصفحات لما وضع لها هذه النهاية الحادة التى جارت على مصير بعض أبطالها ، ولكنها ستبقى رغم هذا عملا فريدا لن يتكرر فى أدبنا أبدا .



نجيب محفوظ
ومجاعة النقد

لأنى أسهر دائما إلى ساعة متأخرة من الليل .. أو فى الحقيقة إلى ساعة مبكرة من اليوم التالى ، فإنى لا أستيقظ مبكرا أبدا ، وإنما تأتى يقظتى من التليفون ، ذلك الجهاز الذى تتدفق من خلاله الحياة رغما عنك فتجذبك إلى دوامتها حتى من أحلى نومة . ولقد سعدت حقيقة فالمتحدث فى ذلك الصباح كان الصديق الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ، الذى بعد ثوان من المحادثة كانت تجلجل ضحكاته فتكاد سماعة التليفون تشاركنا ، من فرط الإغراء ، فى القهقهات . والظاهر أنها كانت ممتعة حقيقة فقد استمرت المحادثة ما يقرب من الساعة والنصف . وكان أهم موضوع « جاد » أثاره كاتبنا الكبير عن النقد ، وحزن نجيب محفوظ لرؤيته كبار النقاد وقد انصرفوا تقريبا عن مزاولة واجبهم الأسمى وتركوا المجال لبعض الصبية الذين فهموا أن عظمة النقد تقاس بمقدار ما ينعيه الناقد من فنون ، وبرز هذا واضحا من خلال « تقييمهم » للموسم الأدبى الماضى ، فتخصص بعضهم فى نعى القصة القصيرة ، بينما راح الآخر ينعى الشعر الجديد ، ولولا بقية باقية من الحياء لنعوا الرواية هى الأخرى والمسرحية .

وأشعرنى حديث نجيب بخطورة الوضع ، فهو يقول هذا فى وقت تنشر فيه مجلة الكاتب دراسة عن أعماله من أعظم الدراسات الأدبية المعاصرة أصالة وجدة يكتبها أحمد عباس صالح ، دراسة تكاد تكون هى العلامة الوحيدة

الباقية الدالة على أن الحياة فى الحركة النقدية لا يزال لها بعض النبض .. ولكن نجيب محفوظ لم يكن يقصد شخصه فقط أو الدراسات عنه ، وإنما كان يذكر الحقيقة بشكل عام . والحقيقة أن ناقدا كبيرا كالدكتور على الراعى كف عن الكتابة ، بينما أستاذ كبير آخر كالدكتور لويس عوض انصرف إلى التأليف أو الترجمة ، وكف الأهرام الأسبوعى عن متابعة الحركة الأدبية كعهده بالنقد والدراسات ، وروز اليوسف وصباح الخير أصبحتا تنشران « آراء » وانطباعات ووجهات نظر ، ومعظمها عن الأفلام والمسرحيات ، وكأن المسألة قد أصبحت بالأسهل ، وبينما اختفى النقد الإيجابى القائم على الكدح الذهنى وإعمال العقل للتقييم والاكتشاف والمقارنة ، ازدهر النقد السلبى الذى لا يكلف الناقد أكثر من سهرة يمضيها فى مسرح أو أمام شاشة تليفزيون أو سينما ، والصفحة الأدبية لجريدة الجمهورية تعتمد على مساهمة الكتاب من خارجها ، وبالتالى فإنها لا تقدم مادة نقدية مبنية على أساس من العمد والخطة . الأستاذ محمود أمين العالم فى المصور ، والأستاذ رجاء النقاش فى الكواكب ، يكادان يكونان وحدهما القائمين بمهمة متابعة الإنتاج الأدبى بالنقد والتقييم متابعة أسبوعية ، لا تتيح لهما فرصة دراسات أعمق . فحركتنا الأدبية قد نضجت فى إنتاجها إلى حد أن بدأت تتكون مدارس ومفهومات .. بدأت رواية جديدة تظهر ، وقصة قصيرة جديدة ، ومسرحية جديدة ، وأشكال مختلفة فى الشعر الجديد ، بل لدى الكاتب أو الشاعر الواحد بدأت تتجمع خصائص وتتكاتف لتكون مرحلة أو انتقالا . هناك محصلة قوى بطبيعة الحال وكلمة ما تريد الحركة الأدبية الحديثة حبا فى النهاية أن تقولها . فما هى تلك الهجرة إلى التاريخ فى المسرح ، حتى رأينا ثلاث مسرحيات متابعة لثلاثة كتاب مختلفى النزعات تعود القهقرى إلى التاريخ وتحوم حول

فترة تكاد تكون واحدة هى عصر المماليك ؟ ما سببها ، ما أصلها ، ومعناها وفصلها ، وهل هى علامة صحة أم علامة مرض ، وما العلاج ؟

نفقد ولا نحظى بجديد :

ألف مشكلة ومشكلة ونحن فى النقاد نفقد ولا يضاف جديد . فقدنا أستاذنا المرحوم الدكتور مندور ، وأستاذنا العقاد ، والملتزم الجاد القدير أنور المعداوى .. دون أن يضاف للقائمة اسم جديد . بل مع اختفاء الدكتور الراعى اختفى أيضا الدكتور عبد القادر القط ، والدكتور رشاد رشدى كف هو الآخر عن النقد ، الدكتورة سهير القلماوى تكتفى فى أحاديثها الإذاعية تقريبا بكتب التراث ، حتى الأستاذ أنيس منصور تحول من نقد الأدب إلى نقد الظواهر الغامضة فى الكون . إن الركيزة الأولى لأى « حركة » أدبية هى الناقد الكبير ، فبلا ناقد لا يمكن أن توجد حركة ، وإنما يتحول الأدب إلى ظاهرة إنتاج فردى ، وهو الوضع الذى آلت إليه حركتنا الأدبية التى لم يعد بها إلا منتجون مصير إنتاجهم محمول على كف عفريت . قد نفقد أجل الأعمال وتتوب إلى الإهمال والنسيان ، لأن حظها — مجرد حظها — عاثر ، وقد تتسلط الأضواء بحكم الصدف وحدها لترفع عملا لا يستحق الذكر . فى الحقيقة أصبح مصير أثمن ما تنتجه قرائحنا فى الأدب والفن متوقفا على هوى ومزاج أناس غير مسئولين ، يزاولون النقد كهواية ، وبالمناسبة بلا أى التزام أو فهم أو أساس . معظمهم أناس لديهم الفرصة للكتابة فى المجلات والجرائد وممن لهم حق قول الرأى والتوقيع بالاسم . حياة أى عمل فنى أو مصيره أصبح معلقا برأى هؤلاء بطريقة كف الجمهور معها عن تصديق ما يكتب أو الإيمان به ، فكثيرا ما تحشد من هذه الأقلام مظاهرة تشيد بفيلم أو مسرحية مثلا وترفعها إلى عنان السماء ويذهب الناس لرؤيتها فإذا بهم يفاجئون بالعمل

لا يمت بصلة إلى ما كتب عنه . وخطورة حملة هذه الأقلام ، ولأنهم ليسوا نقادا ولا يحملون فى صدورهم المسئولية التاريخية عن الحركة الأدبية والفنية ولا يؤرقهم أى التزام ، خطورتهم ألاّ رقيب عليهم فيما يقولـون غير ضمائرهم ، وفى أحيان كثيرة لا ترتبط ضمائرهم بوجه الحق وحده ، إنما ترتبط بوجه المصلحة أو العلاقة الشخصية . وهكذا أصبح مصير عملك .. مصير كتابك مثلا أو مسرحيتك ، معلقا بعدد معارفك من حملة هذه الأقلام ومبلغ حاجتهم إليك أو خوفهم منك . وفى الماضى حين كان الكبار جميعهم ينقدون ، كانت أحكامهم أحيانا تختلف — هذا صحيح ، ولكن مهما بلغ اختلاف وجهات نظرهم فإن عملا جادا كان من المستحيـل أن يفلتـه انتباههم ، وكان من المستحيل أيضا أن يسمحوا بمرور عمل ردىء .. فما بالك بتكريمه وتتويجه ؟

إن حركتنا الفنية والأدبية اليوم تشبه مباراة كرة بلا حكم ، بل إن الأدهى والأمر أن اللعيبة قد أصبحوا الحكام ، والكتاب المنتـجين قـد أصبحـوا ينقدون ، والنقاد بدءوا ينتجون كتبا وأعمالا سينمائية ومسرحية ، ويكاد صوت الحق وسط هذه الفوضى كلها أن يضيع .

وليس الحق وحده .. لقد ذكر لى نجيب محفوظ أن النقد بالنسبة إليه كان البوصلة له والمرآة . وقد تحمست وأنا أقره على رأيه ، فالكاتب حين يكتب قصة أو قصيدة قد يحيط بكنه ما فعله فيها . ولكن تظل فى العمل زوايا وأبعاد لا يمكن أن يدركها من تلقاء نفسه ، ولابد من الناقد الجاد ليدله بالضبط على ما فعل .. أين وصل ؟ وإلى أى اتجاه هو ذاهب ؟ وهل وفق أم كان هيكل عمله العظمى ناتئا فى بعض أجزائه يتطلب كمًّا أكثر من اللحم والدم ونوعا آخر من العلاج ؟ إن الشىء الذى لا يعلمه الناس أن الناقد هو ركيزة الحركة

الأدبية الأولى ، لأنه هو عيون الكاتب وأسماعه ، هو الذى يرى له ، وبالأمانة المطلقة يخبره .

وهكذا ، ومن خلال وجهة نظر الناقد تتحدد للكاتب أحجام عمله وأشكاله وأعماقه ، وعلى هدى ما رآه تتضح له العيون الخفية التى لا يدركها سواه ، ويغير أو يبدل من خط سيره ، أو يطمح فى طريق آخر ، أو حتى يكف تماما عن الخضوع لمدرسته . باختصار بلا ناقد لا يستطيع الكاتب الجاد أن يواصل عمله . لهذا فالخلق والنقد فى الحقيقة عملية واحدة نتيجتها العمل الفنى المتكامل .. إن الكتابة المتصلة تتصل لأنها محاولة الكاتب المستمرة للاقتراب من الصورة المثلى المرسومة فى ذهنه ، وإذا كان الكاتب باستطاعته إن يرى الصورة المثلى التى يريد الوصول إليها ، فللأسف ليس باستطاعته أن يرى الصورة التى ينفذها فعلا وينتجها . الناقد يراها له ، وفى نفس الوقت يراها الناس . إن الناقد « يقرأ » لنا الكاتب .. وقد نظن أن باستطاعتنا القراءة بمفردنا ، ولكن يكفيك أن تقرأ هاملت شكسبير بمفردك ثم تقرأها بعد أن تكون قد قرأت « نقد » دوفرلسون لها . ستحس أنك كنت كمن لم يقرأها ، وكأن دوفر علمنا كيف نقرؤها .

ليست مسألة شخصية :

الوضع كما ترى خطير ، يستشعر خطره كاتب كنجيب محفوظ قد يعتقد البعض أنه لم يعد بحاجة إلى النقد أو النقاد ، فى حين أنه كلما قارب الكاتب من نضجه ، أى كلما اندفع فى تجاربه الفنية إلى أعمق ، أحس بالضرورة القصوى للوقوف على كنه ما يفعله . والغريب إنى أصبحت كلما أخرجت كتابا يحوى مجموعة قصص وأحسست بحاجتى لنقدها ، كان بعض الإجابات من زملائنا النقاد غريبة تدفع للذهول . أكثر من مرة قال لى أكثر من

ناقد : الحقيقة أننا نرى أنك لم تعد بحاجة إلى النقد أو الكتابة عنك ، ونحن نفضل فى هذه الحالة أن نكتب أو ننقد كاتبا ناشئا جديدا . وأن يهتم النقاد بالكتاب الجدد واجب أكيد ، ولكن غير المعقول أن يكون هذا الاهتمام على حساب أن قصصى لم تعد بحاجة إلى النقد ، وكأن النقد أصبح يفهم على أنه « دعاية » للكاتب أو لأعماله بحيث توجه لمن هو فى حاجة أمس إليها . للأسف يغزو هذا المفهوم الغريب للنقد عقول بعض نقادنا ، ويحسون على الأقل بينهم وبين أنفسهم أن كتابتهم عن فلان دعاية له . وربما من أجل هذا المفهوم نفسه انكمش النقد وتضاءل عدد النقاد ، إذ لابد أن عددا منهم أحس أنه لا يفعل أكثر من « الدعاية » لهذا الأديب أو ذاك ، فيصبح الأجدى حينئذ أن ينتج هو ويصبح أديبا مثلا ، وأن يكف أصلا عن النقد استخسارا لجهده أن ينفقه فى تمجيد الآخرين .

هذا هو أخطر ما يمكن أن يصير إليه مفهوم النقد ، أن يصبح عملا شخصيا يرتبط بشخص الكاتب أو الناقد ، وأن يفقد معناه الحقيقى الموضوعى . إن الكاتب الحقيقى يدعى إذا هو اعتقد للحظة أنه ينتج ليصنع له اسما رنانا كالطبل . إن الكاتب الحقيقى تزعجه فى الواقع الشهرة وإن كان يستمتع بجزئه البشرى العادى بها ، ولكنه لحظة الجد لابد أن يحس أنه إنما يكتب لأنه يؤمن برسالة ما ، أو بجمال ما ، أو بقيمة ما ، يهب نفسه للتبشير بها وترويجها . والناقد الحقيقى يتناول أعمال الكتّاب لا لأن هذا صديقه أو أنه معجب بذاك ، وإنما لأن الكتّاب وأعمالهم هم مادته الخام التى — من خلالها — يدعو لرأيه وفلسفته والقيم الروحية والجمالية والفنية التى يؤمن بها . إنه أيضا يستسلم للضعف البشرى ، إذا هو أحس أنه يكتب عن فلان أو يروج لأعماله بالكتابة عنه . إن المسألة بعيدة كل البعد عن شخص الكاتب وشخص الناقد . إن الحركة الأدبية والفنية تتحول إلى

جحيم حين يتحول اهتمام القائمين بها من الأعمال والقيم إلى أشخاصهم وأشخاص غيرهم . إن الذاتية والذاتية الغيرية هى عدوة الفن اللدودة ، كما هى عدوة العلم والثورة وكل عمل إنسانى شريف . بهذا المفهوم الضيق يتحول الحقل الفنى الملىء بالزهور وأنماط الجمال إلى غابة يصطرع فيها وحوش كل منها ينشد التهام غيره وتضخيم ذاته . لكى يقر النظام وتحرق الغابة وتنقرض الوحوش وتستحيل إلى بلابل مغردة.لابد أن يستيقظ النقاد الكبار ويحسوا بخطئهم البشع ومسئوليتهم الكبرى عن الكارثة ، ومن جديد يطبقـون المقاييس الموضوعية .. من جديد يبدأ الحق يسود والعدل .. من جديد يبدأ الحماس للخلق ، للأصالة ، للقيم الفنيـة المهـدرة .. مـن جديـد يطغـى الإحساس بالفن وحده مهما كان شخص منتجه .. من جديد يبدأ الجمهور يثق فى كلمة النقد المكتومة ويؤمن بأن الرأى الصادر لم يصدر إلا عن إيمان حقيقى لا يخالطه الهوى أو الشلة أو المصلحة .. من جديد ينكمش عدد هواة النقد المخربين ويزداد عدد الجادين البنائين .. من جديد يذهب رعب الكتاب وإشفاقهم على مصير أعمالهم وجريهم بطريقة مخجلة وراء كسب الأقلام المؤيدة ، ويصبح كل عملهم مقصورا على الإنتاج ، أما ما بعد هذا فهو مسئولية حركة نقدية كبيرة ملتزمة عاقلة .. من جديد يبدأ كاتب كبير كنجيب محفوظ « يرى » ما قدمه كى يعرف طريقه إلى تقديم غيره .



وداعا .. هيمنجـواى

أحسست بفجيعة تكاد تكون شخصية لوفاة هيمنجواى . لا لعظمته ككاتب ، ولكن لعظمته فوق كل شىء كرجل . وحقيقة مسلم بها .. نادرا ما اجتمعت الموهبة العظيمة مع الشخصية العظيمة ، فمعظم الكتاب يكتبون عن البطولة والأبطال لأنهم ليسوا أبطالا وليس فى حياتهم بطولة ، وقليلون منهم يكتبون عن الأبطال لأنهم أنفسهم من الأبطال ، ولأن البطولة عندهم أعمال عادية يزاولونها دون إحساس بأمجادها أو خطورتها . هيمنجواى كان من ذلك النوع .. ولم تكن بطولته أنه غزا الأقطار أو أقام إمبراطوريات أو انتزع لنفسه تاج اشتغاله بمعركة الإنسان . بطولته كانت أنه عاش الحياة بجرأة بمثل ما يجب أن تعاش به الحياة . وواجهها . بطولته أنه كفرد وكرجل أدرك مشاكل عصره واقتحمها ، وظل يقتحمها ، ويؤمن بعمق أن عمله كإنسان .. كآلة الحياة الكبرى .. أن يظل يواجهها ويقتحمها . حتى فى أقسى وأقصى صورها ظل يواجهها .

وحين حدثت النتيجة الثانوية لذلك الهدف وأصبح هيمنجواى كاتبا شهيرا مرموقا ، كانت النفس الكامنة فيه أكبر من أن تشغلها متعة الجلوس على عرش المجد والشهرة ، وآثر أن يظل لدى نفسه الرجل المقتحم للحيـاة والمشكلة ، ونبذ العرش وحمل البندقية ومضى يحارب بجانب الحق . وحين أدرك أن الحرب بجوار الحق لها نفس بشاعة الحرب بجوار الباطل سئم حرب الرجال جميعا .. وباستطاعتى أن أضيف أنه سئم أيضا عالمهم ، ومضى يقتحم عوالم الكائنات الأخرى فى أحراشها وحلقات مصارعتها .. فى أدغالها

وبحورها ، يؤدى دور الصائد .. دور الرجل من قديم الزمان ، ويؤديه بكل ما يملك من قدرة وكمال مثلما كان يكتب ، فكتابته لم تكن تنبع عن نقص ، كانت تصدر عن كمال .. وإحساس بالكمال . إن قصصا مشهورة كثيرة لكتاب مشهورين تقرؤها فلا تجد فارقا بين أن يكون كاتبها رجلا أو سيدة أو شابا أو شيخا . إذ من الممكن أن يكون أحدهم أو كلهم كتـابها . هيمنجواى هو الوحيد الذى تحس إذا قرأت له أنك تقرأ لرجل ناجح خبير ، جملته جملة رجل ، وحواره حوار رجل ، وحبه حب رجال .

وأمثال هيمنجواى .. ذلك النوع الذى لا يوجد فـاصل بين حياتـه ومؤلفاته ، بين أفعاله وتصرفات أبطاله .. أمثال ذلك الرجل تصبح حياتهم فى الحقيقة أروع وأعظم أعمالهم الفنية على وجه الإطلاق . فهم لا يحيونها كيفما اتفق ، إنهم يؤلفونها قبل أى شىء ، وإذا تتبعنا تاريخ حياة هيمنجواى لأدركنا على الفور أنه لم يعش الحياة كما تطفو الخشبة على سطح البحر تحركها الأمواج كيفما تريد ، أبدا .. لقد كان مزودا بموتور إرادى هائل استطاع به أن يشق البحر ، ويخضع ما هو موجود لما يريد ويخطط لحياته وكأنه يخطط أعظم حياة لأعظم بطل . لوجدناه فى كل ثانية من عمره الأول يقف ، ويصر على أن يقف ، لا حيث توجد مصلحته ، وإنما كما يقول البطل الآخر كاسترو « حيث يوجد واجبه » حيث القتال على أشده فى إيطاليا ، وحيث المعركة من أجل الحرية دائرة فى أسبانيا ، دائما حيث يقف الرجال .

وكل أعمال هيمنجواى لم تكن إلا المذكرات الشخصية للبطل الذى بإرادته خطط له ورسمه . وكل ما فيها من أمجاد .. أمجاد خلقها هيمنجواى الرجل قبل أن يخلقها هيمنجواى الكاتب ، أو على وجه أصح نقلها الكاتب عن تجربة الرجل .

أليس من المضحك بعد هذا أن نتساءل : هل انتحر هيمنجواى أم مات قضاء وقدرا ؟

أرأينا فى حياتنا قصة انتهت قضاء وقدرا ؟

أرأينا قصة تنتهى دون أن يتولى كاتبها إنهاءها بنفسه وبإرادته ، دون أن يضع لها ، وبكل دقة ، الخاتمة التى ترتفع بها إلى أقصى درجات الإتقان ؟

وهل هناك شك ؟ لقد انتحر هيمنجواى . أقصد بيده أنهى حياته ، بإرادته وضع خاتمة أعظم أبطاله .. نفسه .. وإنى لأنحنى له احتراما ، فما أروع الخاتمةَ وما أليقها بالبطل . وهل كان معقولا أن يظل رجل مثله حتى يهمد ويشيخ ويصيبه الشلل ويصبح نفاية تتولى الشيخوخة والموت وضع النهاية لها ؟

.. هل كان معقولا أن الرجل الذى ظل حياته كلهـا يحارب الموت والضعف ، ينتظر حتى ينهيه الضعف والموت ؟ إنى لأكاد أحس به فى أعظم لحظات حياته . اللحظة التى وقف فيها يتأمل ما سبق من حياته وما سيجىء ، اللحظة التى تأمل فيها جسدا جاوز الستين وروحا بدأت تشيخ وإرادة دب فيها الوهن وبدأت ترضخ للواقع والموجود ، اللحظة التى تأمل ما فعله فوجد أنه حارب إلى جوار الحق حتى يئس من نصرة الحق فبدأ يحيا لنفسه .. وبيطولة الرجل أيضا حتى أشبع نهمه إلى حياة الصائد ، اللحظة التى تأمل فيها العالم من حوله وأحس بمشكلاته أكبر وأسخف وأعقد من أن تحلها جهوده وحده أو جهود أى إنسان بمفرده أو حتى باستطاعة أى فرد مهما عظم أن يشارك فى حلها .. تأمل عالما غير عالم ١٤ و ٣٦ و ٣٩ ، عالما جديدا مربكا مخيفا ، الرأى فيه يختبئ وراء الصاروخ ، والمعارك بين دول جبارة القوة ، عالم دول لا رأى فيه لأفراد حتى لو كانوا أفرادا عظاما كهيمنجواى ، عالما حين خرج أخيرا للبحث عن الحق فيه تاه فى البحر ووجد القارب مثقوبا واصطاد

السمكة ، ولكن التهمتها منه وحوش « القرش » وعاد .. متعبا ، شيخا ، ضعيفا ، حزينا . إنى لأكاد أحس بهيمنجواى وهو فى أعظم لحظات حياته وهو يدرك وهنه الشخصى ويستبشعه ويستنكر أن يعيش مهزوما كجسد ، ويدرك كنه العالم من حوله فيجد ألا بقاء فيه إلا أن يرضى من يريد البقاء بنصيب المغلوب .. المغلوب على رأيه . فهل يرضى البطل بنصيب المغلوب ؟ هل يقبل أن تستمر الحياة لا كانتصار للحياة وإنما كهزيمة لها وضعف ؟وهل يقبل هذا بأى ثمن ، ولو كان الغلب على الأمر والرأى؟ هل يقبل الرضوخ للزمن ويقنع من الحياة الماثلة بشيخوخة هادئة ، ساذجة لا تحمل الهم ؟أم ينهى القصة هنا ، وبالضبط هنا ؟ وحسنا وما أروع وأعظم ما فعلت يا هيمنجواى !

وأسفى عليك أيها العالم ، عالمنا ، حين يصبح خير ما يفعله الرجل الفرد الواعى بك وبمشاكلك أن يفضل الموت على البقاء حيا فيك . وأسفى أعظم حين تصبح ميتته غير مستنكرة أو ممجوجة .. بالعكس شريفة رائعة ، ميتة أعظم بكثير من حياة الكثيرين .

إن شجاعة هيمنجواى فى إنهاء حياته لا يعادلها فى رأيى إلا شجاعته فى مزاولتها .. أجل .. أخيرا .. فى عالم مطحون بالعدد والمكن والتوتر والحيوانية ، ها هو ذا صوت يتصاعد ، من أمريكا ، وينطق قائلا : أنا بشر .. أنا رجل .. فقد كان بوسعى أن أظل أعيش ولكنى فضلت أن أموت حين رأيت أن حياتى لن تليق بى كبشر وكسيد هذا العالم ، كرجل .

أيها الرجل الكبير لقد كانت موتتك .. مثل موتة الشهداء فى الجزائر وفى كل مكان ، من أعظم أحداث الإنسان ، فأنت بموتك لم تمت وإنما انتصرت على الموت ، وعلى الحياة ، وعلى عالم الرجال الصغار ، اللا أبطال .. عالمنا ..

إنى أحسدك ..

نقـاش ..

قضيت اليوم كله فى نقاش مستمر مع يسرى ، هو يحاول أن يقنعنى بالعودة لمزاولة الطب ، وأنا أحاول إقناعه بضرورة أن يعود هو للكتابة ومزاولة الأدب .

والغريب أن هذا الموقف ذكرنى بموقف متشابه له تماما حدث منذ عشر سنوات حين كنا لا نزال طلبة فى الكلية ، وكان يسرى يحاول إقناعى فيه بضرورة ترك تلك المهنة البغيضة الطب ، والتفرغ نهائيا لعالم الفن الرحب العريض . وكنت أنا أحاول إقناعه بضرورة مواظبته على الكلية حتى يتخرج ويصبح طبيبا .

وكنت وأنا طالب مثالا للطالب المجد المواظب على حضور العمليات والمحاضرات والمرور . ولم يكن فىّ إلا عيب واحد صغير ، هو حبى للقصص إلى درجة لا تليق بطالب طب « دكتور » . بل أكثر من هذا كان الضعف يستبد بى إلى درجة أنى أحيانا كنت كل ثلاثة شهور أو أربعة أكتب قصة أخفيها فى قاع مكتبى ولا أطلع عليها أحدا ، فالطلبة من حولى كلهم مشغولون بتلقى أسرار علم الكهنوت الأكبر ، يحيون فى مجتمع مغلق عليهم وعلى الجثث والمراجع الضخمة ، مجتمع نجومه على إبراهيم وعبد الله الكاتب وموررو . وليلة القدر عند أى منهم أن يصبح نائب جراحة .. وأنا سائر معهم مدفوع بحركتهم فى سبيل التسابق والتنافس واستيعاب كل ما يمكن استيعابه من الأسماء اللاتينية المعقدة ، والمراهنة على اسم عصب صغير مهمل يرقد فى مكان ما من فروة الرأس .

ولكننى أحس بطريقة ما أن الجو ليس جوى ، والهدف هدفهم هم وأنا أجرى إليه فقط لأنى أرى كل من حولى يجرى إليه . فى تلك الأثناء قرأت ذات يوم قصة فى مجلة القصة لكاتب اسمه محمد يسرى أحمد أذهلتنى ، واعتبرت أن كاتبها لابد فلتة ، إذ لم أكن قد سمعت هذا الاسم من قبل أو قرأت له . وظلت القصة وإعجابى بها يملآن على نفسى إلى أن حدث وعرفنى أحد أصدقائى القليلين من الطلبة فى جلسة من جلسات البوفيه المشهورة بزميل كان يجلس مقطب الجبين عازفا عن الإشتراك فى حديث الطلبة التافه ، وقال محمد يسرى أحمد . و لم أصدق أبدا أنه هو كاتب القصة التى أذهلتنى ، و لم أستطع أبدا أن أهضم أنه هو الآخر طالب فى الكلية ، بل فى نفس الدفعة ، بل فى مجموعتى التى تبدأ بحرف الميم وتنتهى بحرف الياء . غير أن عجبى زال حين عرفت أنه على عكسى وعكس طلبة الطب جميعا بينه وبين الكلية نوع من سوء التفاهم وعدم الاستلطاف ، فهو لا يأتى إليها فى العام إلا مرة أو مرتين ليطمئن على أنها لا تزال موجودة لم تلغ بعد ، أما بقية الوقت فهو مشغول بأشياء أخرى . و لم يكن هذا أول طالب بلطجى أقابله فى الكلية ، ولكن البلطجية الآخرين كانوا يتركون الكلية للنساء أو الليالى الحمراء والخضراء ، أو أشياء أكثر إغراء من الطب . أما أن تترك الكلية لكتابة القصص فهو نوع غريب حقا من البلطجة !

ومنذ ذلك اللقاء لم نفترق . وبعد أن التقينا عدة مرات ووثقت به تماما ، صارحته بأنى أحيانا أكتب قصصا ولكننى أخاف أن أطلع عليها كائنا من كان . وفوجئت حين لم تبد على ملامحه أية علامة من علامات السخرية — بل حدث العكس — وجدته يبتسم لى فى ترحيب شديد ، بل وجدت نظرته تحفل بإكبار وإجلال لم أكن أتوقعهما ، وأصر على استصحابى لكى نقرأ ما كتبته .

وفى وجل شديد ، وبقلب يدق ، قرأت له آخر قصة كتبتها . وكدت أعتقد أنه مجنون حين وجدته قد أعجب بها وظل يتحدث معى بضع ساعات عنها.

ولأول مرة أحسست أن كتابة القصة ليست عيبا أو شيئا مخلا بالشرف ، وأهم من هذا هو أن الإقناع جاء من طالب طب زميل . وحين غادرنى يسرى ليلتها أحسست أنى أقف على باب عالم جميل غريب مجهول أهون شىء على الإنسان أن يهب عمره لتفقده وتعرف مخابئه وأسراره وكل ما يحتويه .

وليال طويلة قضيناها يقرأ لى ما كتبه وأقرأ له ما كتبته ، وشوارع « المدينة النائمة » نجوبها سيرا على الأقدام جوعى مفلسين ، نبحث عن الحقيقة ونناقش الفن والخلود وأصل الكون والفرق بين رومانسية إيليا أبو ماضى ورومانسية ناجى . وكل موضوع نطرقه نتفق فيه بطريقة غريبة إلا موضوع الكلية . أنا أحاول أن أجعله طالبا مواظبا وهو يحاول إقناعى بترك الكلية نهائيا وإلقاء نفسى فى بحر الفن الذى لا يغرق فيه إنسان . ولم ينجح فى إقناعى ولم أنجح فى إقناعه ، وجاء الامتحان وتخرجت . وما كاد يمضى على تخرجى بضعة شهور حتى أدركت أن يسرى على حق ، وأنى لم أخلق للطب ، وقذفت بنفسى فى بحر الفن لأسبح وحيدا ، فيسرى كان قد اقتنع ولا أدرى كيف ، إن المواظبة على الكلية والنجاح ليست عيبا ولا شيئا مخلا بالشرف ، وهكذا نجح وأصبح طبيبا ، وسرعان ما احتواه عالم الطب وما فيه من أسرار ومشاكل ، وترك الكتابة نهائيا .

وافترقنا ..

ومن شهور قليلة جاء يسرى من السودان بعد أن زاول الطب حتى شبع ، وأقسمت بينى وبين نفسى ألا أدعه يفلت هذه المرة ولا بد لى من إقناعه بالعودة إلى مجال هو فارسه الأول بلا منازع . ويبدو أنه هو الآخر كان أضمر فى نفسه

شيئا ، فقد وجدت منه إصرارا غريبا على أن أعود لمزاولة الطب . ولكى يتحقق هدفى وهدفه تظاهر كلانا أنه قد اقتنع بوجهة نظر الآخر ، وقررنا أن نفتتح عيادة معا ، يحاول هو أن يجرنى بها إلى الطب وأحاول أنا أن أخرجه منها إلى عالم الكتابة .

ولا يزال النقاش بيننا حادا مستعرا ، وأخوف ما أخافه أن ينجح يسرى فى إقناعى وأفشل فى إقناعه .

إنى لأشفق على عيادتنا المشتركة فى عشش الترجمان من الصراع الرهيب الدائر فيها .



داخل الصندوق معركة

الكتاب حقيقة صغير فى حجمه ، ولكننى ترددت طويلا وأنا أقلب صفحاته . وكل كتاب فى رأيى صندوق مغلق قد تفتحه فتفاجأ بكنز ، وقد تضنى نفسك فلا تخرج فى النهاية إلا بقبضة لآلئ زائفة . ولكننى هذه المرة متأكد من صاحب الصندوق .. فمحمود أمين العالم قد دخل حياتنا الثقافية والأدبية من أوسع أبوابها ، دخل ليحتل المكان المرموق الشاغر ، وحياتنا الأدبية الجديدة كانت فى حاجة إلى الناقد الجديد الذى يستطيع أن يدرك أبعادها ويفهمها ومنها نفسها يستخرج الجوهر إلى الناس ، يحسده ويدافع عنه . كانت فى حاجة إلى الناقد الذى ينبع منها ليرعاها ، وبأنامله المخلصة المحبة يحدد مواطن القوة فيها ، وبقلبه المشفق يلمس مواطن الضعف .. وهكذا ، وفى أقصر وقت أصبح محمود أمين العالم هذا الناقد الذى تبوأ مكانه عن جدارة بين رعاة الحركة الأدبية الجديدة التى بشرت بالثورة وتفجرت معها .

وصحيح أن نقاد هذه الحركة كثيرون ، بحيث أصبح كل من باستطاعته أن يردد كلمة الحرية أو الاشتراكية أو المضمون التقدمى أو الفن للشعب ناقدا محسوبا عليها ، ولكن هؤلاء الجديرين فعلا بكلمة ناقد ـــ تلك التى ترتفع فى رأيى إلى مستوى العدل السماوى ـــ قليلون ، والموهوبون الذين باستطاعتهم فوق الإخلاص والصدق أن يعبروا عن رأيهم هذا تعبيرا يرتفع إلى مستوى الفن لتصبح أعمالهم النقدية أعمالا فنية تستوحى مادتها من الأعمال الفنية للآخرين .. هؤلاء الموهوبون أقل . وداخل هذه الدائرة الضيقة تنوعت اهتمامات رعاة

الحركة الأدبية الجديدة ، فكان اهتمام الدكتور على الراعى يتجه أكثر إلى التفوق الفنى على مستوى رفيع ، وكان اهتمام أحمد عباس صالح مركزا أكثر على الحكم الصارم لتحديد مدى قربها أو بعدها عن الفن بمفهوماته المتطورة الجديدة ، فى حين وهب رجاء النقاش نفسه للدفاع عما ينتقيه ليعتبره النموذج للشكل والمضمون الجديدين معا وما لا يعجبه فهو أصلا لا يكتب عنه ، أما الزميل الكبير أحمد رشدى صالح فهو وإن كان من أعمدة هذه الحركة الجديدة إلا أنه فى حكمه عليها فإنه لا يختصها بتحيز ولا يفرق فى حكمه بين جديد أو قديم ، وإنما يتحمس للجيد فى رأيه أنى وجد ، بل إنه فى أحيان يتحفظ وكأنه ناقد من أجيال الشيوخ ، فلا يأتى اعترافه بالجديد إلا بصعوبة .

وبقى لهذه الحركة من رعاتها مثلان بارزان على طرفى نقيض ، فالدكتور لويس عوض ليس مجرد ناقد لهذه الحركة أو راع ، ولكنه وكأنه عالم أدب ، فكما يحفر فى القديم ليعثر على رموز تخدم المدرسة الفكرية المتكاملة التى يحاول إنشاءها ، فهو أيضا فى الجديد مشغول إلى درجة عظمى بالتنقيب عن الرموز الجديدة يفكها ويحللها ويصلها بالقديم ويقيم من هذا كله دعائم مدرسته .

الأستاذ محمود أمين العالم هو الآخر صاحب مدرسة تختلف فى رأيى اختلافا جذريا عن مدرسة الدكتور لويس عوض وإن كانت تتفق فى الوسيلة ، فالعالم أساسا فيلسوف . وفى الحركة الأدبية الجديدة من الأعمال ما يجد فيه صاحب فلسفة واضحة محددة مثله ما لا بد أن يأخذ منه موقفا إما بالإشادة وإما بالرفض . وميزة العالم أن الفلسفة عنده ليست موضوعا أكاديميا أو معادلات رياضية ، ولكنها قضية تكاد تصبح .. بل تصبح فعلا قضية حياة أو موت ، وقد أخذ البعض على محمود العالم حماسه وهو يعرض آراءه ، ولكنها فى الحقيقة ليست حماسة .. إنها اهتمام رجل وهب نفسه لرأيه وللدفاع عن وجهة نظره وفعل هذا بكل ذرة قدرة لديه . وهذا هو أروع ما فى الموضوع .

الخطورة فى حامل الشعار :

فليست المشكلة فى رأيى هى أى رأى تعتنق ، فلتعتنق ما شئت من آراء ولكن المهم هو مدى إخلاصك لهذا الرأى ومدى صدقك مع نفسك ومع الآخرين ، فحتى لو كنت مخطئا ، حتى لو عاديت الاشتراكية مثلا عن إحساس حقيقى وعن إيمان ، فعن طريق إيمانك والمجاهرة به .. عن طريق الصدق لابد حتما أن تصل إلى الصواب . إن الصادقين فقط هم الذين يصلون دائما إلى الحقيقة حتى لو فرض وبدءوا من بداية خاطئة . ومحمود العالم مثله مثل الآلاف من مواطنينا المخلصين لم يولدوا بالآراء التى يعتنقونها الآن ، وكثيرون منا بدءوا حياتهم الوطنية والعقائدية بالانضمام إلى مصر الفتاة أو الإخوان ، ولكن رغبتهم العارمة فى الوصول إلى الحقيقة .. صدقهم مع الآخرين ومع أنفسهم كان لابد أن يقودهم حتما إلى الطريق الصواب . المشكلة فى رأيى ، بل الجريمة هو ما نراه لدى بعض الناس ، أولئك الذين — ويا للغرابة — يضعون أنفسهم فى مكان الصدارة من الدفاع عن الحرية والعدالة والاشتراكية ، أولئك الذين لا تسمعهم إلا مجعجعين بكلمات طاهرة نقية مثل الشعب والتقدم وشرف الكلمة ، الواضعين أنفسهم دائما فى مكان القضاة يحكمون على خلق الله بالانحراف أو بالعداء للشعب أو الرجعية أو الانتهازية والنكوص والخيانة والتردد ، الذين نصبوا من أنفسهم مبشرين بالأخلاق الفاضلة والسلوك السوى وهم فى حقيقتهم نماذج بشعة للالتواء والجبن وكل سلوك أعوج . كم من الناس « يلتزمون » بحناجرهم فقط ، تقرأ للواحد منهم أو تسمع فيخيل إليك أنه راهب شعبى يتعبد فى محراب التضحية والبطولة والكلمة الشريفة ، ولكنك تفجع حين تعرف أنه يتخذ من هذه المعانى تجارة رابحة لا تكلفه إلا ترديد هذه الكلمات بمناسبة وبلا مناسبة ..

إنه الشيء الذى يدفع حقيقة للاشمئزاز أن ترى تلك النماذج من الكائنات التى لا تحوى فى أعماقها ذرة واحدة من ذرات الخير، بله التقدم، وهى تحمل راية الشعب وتجأر باسمه ، نماذج .. يا لها من نماذج ، لقد عددت بنفسى فى مقالة لأحدهم كان ينقد فيها بعض من يعتبرهم شريرين وخبثاء ، عددت فى فقرة واحدة لا تتعدى السبعين كلمة ، اثنتين وعشرين كلمة كلها تدور حول الحقد والبغض والمستنقع والقيح والنتانة والانحطاط والفجر والبشاعة .. اثنتين وعشرين كلمة كهذه فى فقرة واحدة من مقالة يدعو فيها إلى الصفاء والمحبة والخلق السوى !

أعتقد أنه قد آن الأوان أخيرا ألا تظل الشعارات تخطف أبصارنا ، خاصة وكل الناس والحمد لله قد أصبحوا حملة شعارات براقة خاطفة . المهم أن ندرك جيدا كنه اليد التى ترفع الشعار ، والمصدر الذى يردده .. إدراك هذا بالغ الأهمية لأن من السهل جدا أن نخدع عن الحقيقة باسم الحقيقة ، وعن التقدم وعن شرف الكلمة باسم شرف الكلمة ، من السهل ما دمنا نجرى وراء الشعار فقط أن يخدعنا حامله ، وبنفس الطريقة التى يكذب بها علينا وربما على نفسه يجرنا إلى مزالق بالغة الخطورة . ولأنه يصدر فى دعوته للفضيلة عن حقد ينشر الحقد بيننا دون أن نحس ، فالحقد روح تسرى ربما من خلال أطيب الألفاظ ، وما أكثر ما تسربت روح تشكيك الناس فى الآخرين واستعداء البعض على البعض من خلال دعوات صالحة إلى المحبة والتسامح .

ولكنها — والحمد لله أيضا — نماذج قليلة ، أصبح أمرها معروفا حتى ليكاد المواطن البسيط يحددها بالاسم واللقب . وسر إعجابى الشديد بمحمود أمين العالم ، رغم كل ما قد يكون بيننا من اختلافات ، هو أنه النموذج المناقض تماما لهذا النوع الذى ذكرت ، إنه الابن الطيب الذى ورث عن هذا الشعب كل

تواضعه وبساطته وصدقه الكامل مع نفسه .. وحين اعتنق محمود العالم رأيه لم يحمله فى يده صولجانا يتباهى به على الآخرين ويتهمهم بالتخلف ويشيد بسموه وتقدميته ، إنما راح بكل بساطة يعمل من أجل إقناع الآخرين وكسبهم . لم يجعل همه أن يضبط الناس ويسجل عليهم تقاعسهم أو قصورهم ، أو ينعى على الضعفاء ضعفهم . لم يحله رأيه إلى قاض أخلاق يحكم على الآخرين ويندد بهم ، وإنما بكل سماحته مضى يبحث فى الناس عن مواطن الخير ويجبذها ويمجدها ، ويعيش رأيه فبينه وبين نفسه هو هو بينه وبين الناس ، ورأيه فى وجهك هو نفس رأيه فى غيبتك ، وبلا تجارة بشرف الكلمة هو دائما شريف الكلمة ، وبلا صراخ أو ضجيج منفعل واتخاذ لموقف الشهيد المعذب ضحى و لم أسمعه مرة يذكر تضحيته ، أو أحسست به واعيا أو مدركا لها وكأنها ما حدثت . و لم تكن هذه صفاته هو وحده ، إن شعبنا حافل بالملايين من أمثاله ، آخرهم وليس أقلهم هو ذلك العامل فى السد العالى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، ذلك الذى كان بعد أن تنتهى نوبته يظل فى مكانه يعمل ولا يطالب أبدا باحتساب أجر عمله الإضافى هذا ، ولا سمعه أحد يذكر أنه إنما يضحى من أجل مشروعنا وشعبنا ، الخير فينا كثير ولكن المشكلة .. الشاذ ، هو ذلك النوع من الكائنات الذى آن أوان انقراضه واختفائه كلية من حياتنا .

معارك فكرية ولكن ..

وكتاب محمود العالم « معارك فكرية » صورة مصغرة لشخصه ، كل ما فى الأمر أنك بعد قراءته تؤمن أن العالم يعتنق رأيه لا لأنه مع الرائجة أو ليركب موجة الاشتراكية الصاعدة ، ولكن لأنه وصل إليه بعد رحلة بحث

شاقة وعميقة .. بعد معاناة جادة ودؤوبة لمواطن مثقف أراد أن يعرف الحق والحقيقة ، وحين وصل إلى ما آمن أنه الحل الحتمى ليس فقط لمشاكل شعبنا وإنما للعالم والوجود كله ، وهب نفسه كلية لهذا الإيمان يدعو له ويناضل فى سبيله ويدافع عنه .

والكتاب مذكرة ضليعة أعدها محام قدير مدافعا عن قضية الاشتراكية العلمية ، مذكرة تفند فى تدفق وقسوة أقوال شهود النفى من براجماتيين ووضعيين منطقيين ووجوديين وغيرهم ، وفى نفس الوقت تبشر بتدفق أعظم بكل ما يصلح دليلا للإثبات . وكم كنت أتمنى لو لم يكن الكتاب عددا من المقالات المتفاوتة التواريخ ، فقد أدى هذا إلى أن هناك مقالات تحس أن الآراء الواردة بها قديمة والقضايا التى تثيرها قد انتهى الجدل حولها من زمن ، فى حين أنى كنت أطمح من كتاب يكتبه العالم اليوم ويتحدث فيه عن الاشتراكية أن يأتى ابن ساعته ، ابن أعوامنا هذه وقضايانا ، فالجدل حول الاشتراكية لم يعد جدلا حول نفعها أو أهميتها أو تفوقها على كل الفلسفات ، ولا عن حتميتها ووحدانيتها كالوسيلة العلمية الوحيدة لحل متناقضات المجتمع البشرى بحاضره ومستقبله . كل هذا لم يعد محل جدل كثير ، إنما الجديد اليوم هو القضايا التى أثارتها الاشتراكية نفسها لدى تطبيقها .. الجديد هو المشاكل التى أثارتها الاشتراكية العلمية فى حلها .. الجديد هو القضايا التى كانت تعتبر مسائل مسلما بها والتى لم تعد الآن كذلك .. الجديد مثلا هو مشكلة علاقة الفرد والمجتمع ، إذ أن التطبيق قد أثبت أنه فى بعض الأحيان يطغى الوجود الجماعى على الوجود الفردى إلى درجة تهدد الجماعة نفسها ، إلى درجة أصبح شغل المفكرين الاشتراكيين الشاغل هو كيفية تحقيق الوجود الفردى داخل الوجود الجماعى دون أن تتضخم الفردية وتطغى .. الجديد هو الديمقراطية

الاشتراكية لا كشعار وإنما كحقائق وتطبيقات .. الجديد هو التغيرات التى طرأت على موقف الاشتراكية من الداروينية والفرويدية والنسبية . كل هذا كنت ولا أزال أتوقعه من كتاب يكتبه محمود أمين العالم عن الاشتراكية . ولكن الكتاب ليس بالضبط عن الاشتراكية وإنما هو كما يقول عنوانه معارك فكرية .. صحيح أنها معارك فكرية يخوضها مفكر وفيلسوف اشتراكى ضد أفكار وفلسفات غير اشتراكية . ولكن رغم دسامة الدراسات وعمقها ، رغم أنها ترسم صورة نابضة لجانب هام من جوانب وجودنا الفكرى والسياسى ، رغم أن موضوعها معروف وموقف كاتبها واضح سلفا ، رغم أنها أول كتاب لمحمود أمين العالم ، إلا أننى — ومعى آلاف من قراء السياسة والفلسفة والمتبعين لكل ما يمت إلى قضية حياتنا الاشتراكية — لا نزال فى حاجة ماسة من كافة كتابنا ومفكرينا وفلاسفتنا الاشتراكيين ، ومن محمود العالم بالذات ، إلى كتاب عن المعارك الجديدة للاشتراكية ، وأهمها معركة الاشتراكية والاشتراكيين مع الاشتراكية نفسها ، أو بمعنى أدق مع بعض المفهومات الاشتراكية ، وبشكل خاص تلك المفهومات التى يتسرب منها الخطأ أثناء التطبيق والتى نسبت فى ظهور الانحرافات الطغيانية وعلى رأسها دون ريب العلاقة التى شغلت بال البشرية منذ أتينا إلى لحظتنا الحاضرة ، علاقة الفرد بالجماعة والمجتمع والدولة .

إنى وإن كنت أعتقد أن كتاب معارك فكرية هو من أخصب وأدسم ما قرأته فى حقل الفكر والفلسفة من إنتاج القريحة العربية ، إلا أننى أتطلع بشغف كبير إلى الكتاب القادم لمحمود أمين العالم عن معارك الاشتراكية مع الاشتراكية ، إذا صح أن تسمى هذه القضايا الخطيرة معارك .

الثورة الجزائرية « بومدين »

الحقيقة أن شغفى بالثورة الجزائرية لم يفتر يوما منذ أن اندلعت فى أول نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وقد قدر لهذا الشغف أن يتطور لتصبح القضية الجزائرية قطعة من ذات نفسى وجزءا لا يتجزأ من تاريخ حياتى ، وأنا أشهد أحداثها فى مراحلها المختلفة ، وأرى أبطالها وهم ثوار خنادق وغارات ، ثم وهم رجالات سياسة ودولة وأزمات !

وكان أول اتصال حقيقى حدث لى مع الثورة الجزائرية وجيش التحرير ، هو ذلك اليوم الذى قرر فيه الدكتور عبد القادر حاتم إيفاد بعثة لعمل تحقيق تليفزيونى مصور كامل عن الثورة الجزائرية ، وعهد لى بشرف رئاسة هذه البعثة . وكانت مغامرة العمر ، فقد أتيح لى آنذاك أن أحيا مع جيش التحرير الوطنى الجزائرى وهو يقض مضجع فرنسا بهجومه ومعاركه وغاراته ، وقضيت الأيام والأسابيع مع قواته داخل الخنادق المحفورة فى بطن الجبل ، وفوق الربى والغابات أشهد وأساهم وأتصور بعض معاركه الفاصلة ، وعبر الخطوط المكهربة ، وأخرج من هذا كله بإصابة الركبة اليمنى ، وبفيلم عن الثورة عرضه التليفزيون ، وكان أول تحقيق يقوم به جهاز للإعلام العربى عن أعظم ثورة عربية مسلحة ، فيلم عرض أكثر من مرة ، وبيعت منه أكثر من نسخة إلى محطات التليفزيون العالمية .

قصة طويلة مريرة عامرة بالذكريات ..

المهم الذى أريد أن أذكره هنا هى تلك الليلة التى لا أنساها أبدا ، والتى كانت أول وآخر مرة أقابل فيها الكولونيل بومدين فى مقر قيادته السرية لجيش التحرير .

كان قد تحدد اليوم — بعد انتظار دام أسبوعا قضيناه على أحر من الجمر فى مدينة تونس — وفى الخامسة صباحا جاءت عربة « بيجو » فرنسية ذات سائق مسن صامت ، حين لم يعلق على أسئلتنا الكثيرة بأكثر من الابتسامات المؤدبة آثرنا السكوت وأسلمناه أمر مصيرنا . كنا نعرف أننا فى طريقنا إلى مقر قيادة جيش التحرير ذلك هو كل ما كنا نعلمه ، ورحت طوال الرحلة الصامتة الطويلة أحاول أن أتخيل المكان الرهيب الذى تدار منه المعارك التى تكلف فرنسا ملايين الملايين من الفرنكات ومئات الضحايا . ولم تنته رحلتنا إلا قرب الظهر حين دخلت بنا العربة مدينة تونسية صغيرة نائية قرب الحدود الجزائرية يسمونها جاردماو ، فى حين أن الاسم العربى لها هو غار الدماء ، ولكن هكذا كان ينطقها الناس هناك جريا على النطق الفرنسى لها .. بلدة يقال إنها شهدت معارك مهولة فى تاريخها القديم ، ولهذا السبب أطلق عليها اسم غار الدماء .

ظلت العربة تجوس خلال شوارع المدينة التى تشبه أحد «المراكز» فى ريفنا المصرى ، وهناك عند نهاية البلدة دخلت بنا بناء يبدو كالمصنع القديم المهجور أو كمدرسة ابتدائية خالية من الطلبة .. بناء لا يميزه عن غيره من الأبنية إلا أن ثمة جنديا بملابس جيش التحرير يحرسه من الداخل ، أما من الخارج فلا يبدو عليه بالمرة أى لمحة تدل على المهام الخطيرة التى تجرى داخله . هذا البناء هو مقر القيادة العامة لجيش التحرير الوطنى الجزائرى ، هناك قابلنا « سى فرحات » ذلك الضابط المتحمس الشاب الصغير ذا المنظار ، الذى

لا ينام إلا والتومى جن بجوار فراشه ، والذى كان يمثل ما يشبه الشئون العامة لجيش التحرير . من تلك اللحظة أصبحت البعثة فى عهدة فرحات ، « تراه أين هو الآن وماذا صار إليه ؟ » ، وأفهمنا فرحات أننا سنقضى بعض الوقت فى القيادة العامة ريثما يدبر أمر رحيلنا إلى الجبهة . وبعد دقائق كنا نغير ملابسنا المدنية بأخرى من ملابس جيش التحرير ، وهكذا بعد أقل من نصف ساعة كنا قد قطعنا صلتنا بحياة عريضة بدأناها فى القاهرة ، ودخلنا فى حياة جديدة علينا تماما أو على الأقل هكذا كنت أحس وأنا محشور داخل بنطلون جندى « صاعقة » وقميصه . أفهمنى فرحات أنهما لجندى فرنسى الله وحده يعلم مصيره آنذاك إذ لم أجد مقاسا يناسبنى بين ملابس الجنود الجزائريين الذين يتميزون كسكان الجبال بالقوام الرفيع الصلب .

الإيتاه ماجور ..

مكثنا ليلة ، وفى الليلة التالية أخبرنا فرحات بقرب حلول موعد العشاء ، والعشاء كان يحل ساعة غروب الشمس . إننا سنتعشى مع الـ Etat Major وهو الاسم الذى يطلقونه على القيادة العامة . وحسبت أننا بعد طعام الفلفل الحار المقلى الذى ظللنا نتناوله منذ أن حللنا بجيش التحرير فى طريقنا إلى مائدة طعام دسمة . ولشد ما خاب ظنى ، فقد قادنا فرحات إلى غرفة عرفت فيما بعد أنها ملحقة بمكتب القائد العام .. ذلك المكتب الذى لمحته من خلال الباب الفاصل لا يميزه شىء عن مكتب ناظر مدرسة إلزامية إلا منضدة كالتى يستعملها الرسامون عليها خرائط ، دخلنا فرحات وعبد الرحمن هندام وعم رجب وأنا « أعضاء البعثة » فوجدنا ثلاثة أو أربعة رجال جالسين إلى طرابيزة من الخشب الكالح لا كراسى حولها ، إنما على كل ناحية من نواحيها

« دكة » خشبية منخفضة ، وقلنا سلام عليكم وردوا السلام وهم يأكلون ، إذ كانوا فعلا يتناولون الطعام دون انتظار لمقدمنا ، وعرفنا حينـذاك ألا برتوكولات هناك فى جيش التحرير ، وجلسنا ، وفى الحال جىء لكل منا بطبق من « الكسكس » وهو الطعام الرسمى والشعبى للجزائريين الحافل بكميات من الفلفل الحراق الهائلة ، وكان هو كل العشاء .

ولكن مشكلتى لم تكن الكسكس أو الفلفل أو الطعام ، كانت مشكلتى أن أحاول أن أخمن من يكون من بين الثلاثة الموجودين القائد العام ؟ كنت أعرف أن قائد جيش التحرير اسمه بومدين أو الكولونيل بومدين ، ولكنى لم أكن أعرف صورته . تراه من يكون فيهم ؟ تـركت مسألـة التحديـد للحديث ، ولكن الحديث الذى دار كان قليلا جدا لم يتعد بضع كلمات ذكرها كل منهم ، وعرفت منها أنهم جميعا قد زاروا القاهرة زيارات خاطفة ، ولكنى من مجرد طريقته فى الكلام ، من جلسته ، من نظراته خمنت أن القائد العام لابد أن يكون ذلك الرجل الذى كان يبدو أنه لم يتجاوز الأربعين الجالس أمامى مباشرة . العجيب أن نفس الخاطر كان يدور فى عقل زميلى هندام وعم رجب وأنهما هما الآخران أدركا أنه نفس الشخص الذى خمنته ، مع أن الضباط الثلاثة كانوا يرتدون نفس الزى ويتمتعون بنفس الاعتداد والثقة بالنفس، هو ذلك النحيل ذو الشعر الأشقر الأحمر والوجه الرفيع الضامر المشرب بحمرة ، كل ما كان يميزه عن زميليه أنه كان يحدثنا باللغة العربية بلكنة جزائرية وإنما بطلاقة ، ثبت لنا معها أنه خير من يتكلم بالعربية فى جيش التحرير كله ، بل وبين كل القادة الجزائريين على كثرتهم ، أما الضابطان الآخران فقد كان مقدرا لهما أن يلعبا دورا خطيرا بعد هذا ، فقد كانا هما نفس الضابطين اللذين قبضت عليهما حكومة بن خدة وادعت أنهما تسللا إلى داخل التـراب

(بصراحة غير مطلقة)

الجزائرى للتمهيد لزعامة بن بيللا وتقوية قبضة جيش التحرير وبومدين على ولايات الداخل ، وصنعت من هذا حجة لإصدار قرار بعزل « الإيتاه ماجور » أو بومدين وأركان حربه . وكانت النتيجة تلك الأزمة التى أطاحت بحكومة بن خده .

فراز الرجال :

أذكر أن بومدين سألنا يومها إن كنا جادين فى رغبتنا فى الاشتراك فى معركة يخوضها الجيش مع القوات الفرنسية عند خطوط شارل أو موريس ، وحين أكدنا له عزمنا على هذا أجابنا بأنها مسئولية جيش التحرير أن يحافظ على حياتنا ، ولكنا أبدينا استعدادنا بكتابة تعهدات على أنفسنا تخلى جيش التحرير من المسئولية ، وتفرس فينا بومدين بنظرة فاحصة عميقة لست أدرى أكان بها يختبر شجاعتنا وهو القائد الذى دربت عينه على فرز الرجال وسبر غور طبيعتهم ، ولكنها والحق يقال نظرة لم نسترح لها كثيرا إذ كانت خالية من الود ، حافلة بالموضوعية . وهكذا بومدين .. إنه ليس من ذلك النوع الاجتماعى الودود من الرجال الذى يسخر مواهبه ويستنفد قواه فى كسب الأصدقاء والأنصار . إنه دائما موضوعى وجاد وعلاقته بالناس يحددها المبدأ أو القضية ولا تحددها أبدا العاطفة الشخصية ، وربما يصلح هذا المفتاح لتفسير كنه ما حدث ، فالناس لا يزالون للآن يعجبون كيف « ينقلب » بومدين على « صديقه » بن بيللا .. إذ ذلك نوع من التصور العاطفى الشخصى للعلاقة فى حين أن علاقات بومدين بالناس كما قلت أساسها أبدا ليس العاطفة أو النوازع الشخصية .

المهم أنى خلال اليومين اللذين قضيناهما فى « الإيتاه ماجور » نحيا مع

بومدين عن قرب ، نأكل أحيانا معا ، وكثيرا ما نلتقى ونتبادل الأحاديث الخاطفة . أدركت أن قيادة جيش التحرير ليست سوى الجزء الحاضر أو الظاهر من مهمة كبرى لا تزال مستترة يعد لها هذا الرجل القوى المتميز نفسه .

المشهد الغريب :

وقد قدر لى أن أعود للقاء بومدين بعد أكثر من عام ، أيام الاستقلال وأزمته ، حين أوفدتنى جريدة الجمهورية لموافاة قرائها بأخبار وتفاصيل الأزمة التى نشأت بين بومدين وبن بيللا من ناحية ، وحكومة بن خده وبوضياف وبلقاسم من ناحية أخرى . كان بن بيللا أيامها فى القاهرة لا يزال ، وكان بومدين قد دخل بقواته من الحدود التونسية الجزائرية والمغربية الجزائرية ، واحتل جيش التحرير نصف الجزائر الغربى الذى تعد وهران عاصمته ، رحنا ننتقل مع قوات جيش التحرير وهى تزحف من وجدة « قرب المغرب » إلى تلمسان « مسقط رأس بن بيللا » ثم نتوغل داخل الولاية الرابعة وهران وتيارت . كان الجيش يتحرك وجبهة التحرير الموالية لبن بيلا وبومدين تعقد الاجتماعات الشعبية ، وبن بيللا يستدعى ويأخذ مكانه على رأس الموكب الزاحف ، وكان بومدين دائما هناك ، وهناك دائما جلسته فى جانب من منصة الشرف يرقب ما يحدث بعيون متيقظة كعيون الصقر ، وتحس أن وراء جبهته العريضة تصميما مستميتا قاهرا على الانتصار . حتى جاء يوم رأيته فيه فى مشهد بالكاد صدقته عينى ، كانت عائلته قد انضمت إليه ، ورأيته يوما فى مؤتمر تيارت وفرحات عباس ومحمدى السعيد ومحمد خيضر وبن بيللا يحتلون مقاعد منصة الشرف الأمامية ويخطبون ، بينما هو

قابع فى مؤخرة المؤتمر يرقب ما يحدث بنظراته الملتهبة الحادة ، ولكنه كان هذه المرة يحتضن طفلا فى الثامنة أو السادسة من عمره ، عرفت لشدة الشبه أنه ابنه ، وكان يحدث فى أحيان قليلة جدا أن يقطع نظراته المتفحصة الحادة ليرمق الطفل بعيون يتدفق منها فجأة حنان غريب لا تكاد تصدقه ، وأبوة صافية خالصة من الصعب أن تتصور أن بومدين ـــ ذلك الرجل الحديدى ـــ هو صاحبها .

ولست أعرف لماذا ورغم الازدحام والخطباء والأسماء الضخمة المتصدرة ، ورغم أنه الوحيد الذى كان لا يخطب ولا يتكلم ولا يدلى بأية تصريحات بينما الكل أيامها قد تلبستهم حمى الزعامة وعقد المؤتمرات ، والبلاد وإن كانت قد ظفرت بالاستقلال إلا أنها لا تزال بلا حكومة ، أو هى بحكومة كالملك فى بعض الدول تملك اسما ولكنها لا تحكم .. رغم أن الجزائر أيامها كانت مجرد شعب كبير خرج للتو من سجنه .. الدولة فيها لا تزال سديما لم تتحدد معالمه ، وجنينا فى بطن الغيب لا تعرف ماذا يكون عليه شكله أو كنهه أو مصيره ، رغم أن كل شىء كان يغلى ذائبا لا تستطيع أن تضع يدك على شــىء أو شخص صلب له ثقل وكيان فيه . رغم كل هذا فقد كنت لا أستطيع شخصيا أن أحول انتباهى عن بومدين . والابتسامة الجادة التى لا تتغير أو تتطور فى ملامحه ، معتقدا .. بل أكاد أكون مؤمنا إيمانا لا يتزعزع أنه الرجل الذى يملك فى يده مفتاح الموقف . ليس فقط مفتاح الموقف فى أزمة ما بعد الاستقلال ولكن مفتاح الموقف فى الجزائر بعد ما تستقل ، وفى الدولة حين يتجمد كيانها السائل الذائب ويصبح صلبا كهياكل الدول .

كنت دائما على يقين أنه المخرج الحقيقى للرواية وأن المسألة عنده مسألة وقت وزمن ومجرى طبيعى لابد أن تجرى فيه الأمور .. ولكن دائما وأبدا ستحين اللحظة التى سيوقف فيها بإشارة منه الصخب الدائر فوق المسرح ، ويتقدم بنفسه هذه المرة ليتولى الزمام ..

وهو بالضبط ما كان .



أما عن الزنوج في أمـريكا

فرق كبير بين أن نقرأ عن قضية كقضية الزنوج فى أمريكا وبين أن ترى القضية على الطبيعة . والزنوج الأمريكيون كما رأيتهم بنفسى فى شيكاجو بالذات فى حالة ثورة وتمرد أكثر بكثير من الثورات التى تجتاح أى بلد مستعمر ليتحرر ، لقد شاهدت فى يوم أحد مظاهرة قام بها أكثر من مائة ألف زنجى يغنون بصوت منغم رخيم « الحرية .. الحرية » يغنونها للسماء وللكنيسة ولناطحات السحاب فى بلد يعتقد البعض أنه موطن الحرية وراعيها .

ولقد مرت المظاهرة من أمامى واستغرق مرورها أكثر من ساعة ، وكنت طوال الوقت أتساءل ممن يطلب الزنوج هذه الحرية ؟ أمن الحكومة ؟ إنها حكومة البيض ، وهى ليست حكومة بيض فقط ولكنها حكومة هؤلاء الذين يعتصرون البيض أنفسهم ويستغلونهم ويحيلونهم إلى عبيد لنظام دقيق رهيب يمثل أذكى ما استطاع الجشع الإنسانى أن يقيمه ويشيده وينظمه . أيطلبونها من الكنيسة ؟ ولكن الكنيسة أيضا بيضاء . وصحيح أن هناك عدد كبير من رجال الدين يعطفون على قضية الزنوج ويؤيدونها ، ولكن المشكلة فى هذا النظام الرأسمالى الغريب أنه يسمح حقيقة بحرية المعارضة ، بل أحيانا يجد أنها مفيدة لعملية الإنتاج الرأسمالى نفسها ، باعتبار أن الفرد يحس بهذه الحرية

المزيفة ويستمتع كالطفل الأبله بمجرد وجودها ولو على الورق ولو مع ايقاف التنفيذ . ولكن دع هذه الحرية تهدد وجود النظام .. دعها ترق إلى مستوى المعارضة الحقيقية حتى لتوشك الأسس أن تتمايل وتضطرب ، إذن فستجد الطبقة الحاكمة قد كشرت عن أنيابها واستعملت الحرس والجيش وكل ما تستطيع أن تصل إليه يداها لقمع هذه المعارضة . وهذا هو بالضبط ما يحدث فى الجنوب الأمريكى ، بل ما يحدث فى فيتنام .. فالغازات السامة وقنابل النابالم وقتل الأطفال والنساء وتدمير طاقات مجتمع بأسره لا يمكن أن يكون من سمات أى حرية من حريات العالم حتى الحرية الأمريكية . لا يمكن لدولة تؤمن حقا بالحرية . حرية الفرد وحرية الشعب أن تفعل ما تفعله أمريكا فى فيتنام . لا يمكن للدولة أن تكون بوجهين ، وجه حر فى بلادها ووجه قاتل للحرية وخانقها فى بلاد غيرها .. إنما هى الحرية المزيفة داخل أمريكا ، تسفر عن وجهها الحقيقى خارج أمريكا . لقد ناقشت كثيرا من المسئولين وغير المسئولين فى قضية فيتنام فكان جوابهم شبه المتفق عليه أنهم إنما يدافعون عن « حرية » العالم الغربى ضد الزحف « الشيوعى » ، وكنت أقول لهم : أية حرية تلك التى تخنق من أجلها ويمثل بها حرية شعب ، أية حرية تشترى بدماء الأطفال وبالسناكى تبقر بطون الحوامل إن هى إلا الفاشية مقنعة . إن الحرية كل لا يتجزأ ، فإذا أزهقتها فى مكان فأنت على الدوام قاتلها . وهذا هو بالضبط ما وجدته فى أمريكا . إن المظاهر البراقة للحرية موجودة .. الصحافة تنقد جونسون ، وبعضها يعارض الحرب فى فيتنام ، المثقفون يعادون وكأنما بالغريزة الطبقة الحاكمة «، وإن كانوا يدافعون عن النظام » ، حتى لقد تلقى جونسون عريضة موقعا عليها من ثمانية آلاف أستاذ جامعى يطالبون فيها بإيقاف الحرب فى فيتنام . التليفزيون بجوار

الإعلانات التى تثير الفتيان — ويذيع أحيانا ندوات ينقدون فيها سياسة أمريكا الخارجية والداخلية ، ولكن المشكلة الحقيقية أن هذا كله يدور والآلة الرأسمالية الرهيبة سادرة فى غيها ، سادرة فى ضرب فيتنام ، سادرة فى ضرب حركات التحرر فى كل مكان . نجد بعض الأمريكيين يشمئزون من مجرد ذكر وكالة المخابرات المركزية ويهزون أكتافهم ، وفى نفس الوقت يعتمد الكونجرس لهذه المخابرات مئات الملايين من الدولارات لتنفق فى هدم النظم والمجتمعات الأخرى .. باسم الحرية أيضا . الفرد حر فى أن يلتحق بهذه الشركة أو تلك ، ولكن أدخل فى صميم العمل تجد ذلك الفرد وقد فقد تماما حريته .. إذ لكل فرد يعمل فى الشركة ملف سرى خاص يدون به ما لا يمكن أن يخطر بباله من المعلومات عن أصدقائه ، ألعابه المفضلة ، هوايات زوجته . ولكل شركة جهاز تجسس على العاملين فيها يستحل لنفسه أن يضع مكبرات الصوت فى حجرات النوم ، وأن يفتش البيوت ، وأن يتجسس على المحادثات التليفونية كى يحصل على هذه المعلومات ، وكل بند من بنوده يتدخل فى ترقيته أو حتى فى فصله من الشركة . أجل ! الحرية فى الدستور موجودة وفى الظاهر تزاول علنا . ولكنى آمنت أن المجتمع الرأسمالى لا يمكن أن يسمح بالحرية الحقيقية .. إذ لو سمح بها لربما رفضه الناس تماما .. إنه يسمح بها فى حدود ، وبالقدر الذى يكسبه المظهر الحر ، وليس أكثر من هذا .. أبدا ليس أكثر من هذا .

الخدعة الكبرى :

ومن هنا بالضبط تنبع المأساة فى قضية الزنوج . منذ أكثر من مائتى عام وهؤلاء الزنوج يكافحون لنيل حريتهم معتقدين تماما أنه حسب الدستور لهم

الحق كل الحق فى أن يكونوا مواطنين مساوين تماما للبيض فى الحقوق والواجبات ، تضللهم هذه الخدعة الكبرى .. بدءوا المسيرة من أجل الكفاح الدستورى لنيل الحقوق . وحقيقة أنه فى بعض الولايات — وفى الشمال بالذات — حصل الزنوج على الحقوق الدستورية للمواطن . فهل معنى هذا أنهم أصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى ؟ لا . فالزنوج فى أمريكا لا يزالون — حتى فى الولايات التى نالوا حقوقهم فيها . يعاملون بالتحفظ الشديد من جانب البيض مما يجعلهم يكادون يصبحون مواطنين من الدرجة الثانية . لا يزال هناك الجدار غير المرئى الذى يفصلهم عن البيض ، لا يزال هناك التوجس والخوف وعدم الأمان . لا يزال الزنوج يحسون أنهم وإن كانوا قد نالوا بعض الحقوق إلا أن الهوة عميقة .. تبدو وكأن لا بعد لها . وقضية الزنوج ليست قضية لون فقط ، ولا قضية سيادة أبيض على أسود ، ولا قضية أقلية هى عشر الأغلبية البيضاء ، ولا قضية مستوى تعليمى أو اقتصادى . إنها أولا وأساسا قضية الحرية فى المجتمع الرأسمالى واستحالة التمتع بها .. كنت وأنا أتتبع المظاهرة السوداء التى تغنى بالحرية للحرية أراجع فى ذاكرتى كل الآراء التى قرأتها عن ضرورة وقرب حل قضية الزنوج وأسخر بها فى أعماقى . فقد بدا لى الحل مستحيلا تماما فى ظل المجتمع الرأسمالى القائم على التنافس وعلى سيادة الأحسن أو الأذكى أو الأكبر تعليما أو نقودا .. إنه مجتمع صراع يكاد يقترب من الحيوانية من أجل البقاء . صراع لا مكان فيه للشفقة أو للعطف أو للإنسانية . صراع إذا استحلت فيه إنسانا ضعت . صراع وإن يكن القانون قد نظمه ووضع عقوبات لكل من يخالفه إلا أن القانون لا يمكن أن ينطبق على ما تزخر به الأعماق . القانون لا يحاسبك عما يدور فى رأسك .. عن عواطف .. إنه فقط يحاسبك على تصرفاتك . وحتى

ليست كل تصرفاتك ، ولكن هذا الجزء منها الذى يخالف القانون.وإذا كان جهابذة الثورة الرأسمالية فى عصر النهضة قد قالوا : قد أخالفك فى الرأى ولكنى مستعد أن أضحى بحياتى دفاعا عن حقك فى قول رأيك . فلقد كان هذا القرن التاسع عشر ، أيام أن كانت العلاقات الرأسمالية بالنسبة للعلاقات الإقطاعية حلما من أحلام الإنسان . أما الآن وقد نضجت الرأسمالية حتى اقتربت من الشيخوخة فقد تحولت إلى نظام يخاف من نفس قوانينه الأولى . ومن نفس شعاراته .. ومنها الحرية . إذ لو سادت تماما وحقيقة لا تقلب الناس على هذا النظام الذى أصبح يعوق تقدمهم كبشر . ذلك النظام الذى تحول إلى الرشوة ، فأصبح همه أن يغرق الكادحين فيه بفيض من البضائع الاستهلاكية والمغريات الصغيرة والتوابل ليحبب إليهم القيد ويجعلهم يستمرون فى المضى تحت سلطانه . ألا ما أتعس ذلك الإنسان وهو يترنح تحت عبء القيد .. ألا ما أبشعه وهو يحاول التملص من انفجاراته العنيفة . لقد قرأت وشاهدت فى التليفزيون قصة ذلك الطالب الذى صعد إلى برج جامعة تكساس وصرع ٢٣ شخصا ببندقيته . يخيل إلىّ أنه كان يريد أن يصرع شيئا أكبر من هذا بكثير ، كان يريد أن يصرع ذلك النظام الرهيب المختبىء الذى لا تراه ولا تلمسه ، المستخفى بطريقة لا تستطيع معها أن تحدده ، النظام الذى يحكم علاقات الناس فى أمريكا ، النظام الرأسمالى الذى لم يعد يصلح لبشر .

لابد أن ينتهى :

وأنا واقف أشهد المظاهرة كنت أقول لنفسى : لا جدوى أيها الأصدقاء إنكم تطلبون الحرية من قاتليها ومزهقيها ، إنكم تطلبون المستحيل .. إن الحل

الوحيد لقضيتكم ولكل القضايا المغلقة هو أن ينتهى نظام السادة والعبيد ، هو أن تسود الحرية بكل معانيها وأبعادها الحقيقية ، هو أن يتغير النظام ، فى ظل الاشتراكية فقط تحل مشكلة السود والصفر والسمر والبيض . فى ظل نظام آخر للحياة وليس ذلك النظام الذى لا يعلو فيه الإنسان إلا على رقاب الآخرين ، فى ظل نظام آخر غير هذا النظام ، نظام يستطيع أن يرحم ويفهم ، نظام إنسانى ، نظام حتى وإن لم يستطع أن يحقق لأفراده الرفاهية المادية فعلى الأقل يحقق لهم الرفاهية الروحية ، الرفاهية الإنسانية ، الرفاهية الجديرة بالإنسان ، فالإنسان قبل أن يكون حيوانا منتجا أو عاملا ضاحكا هو أولا حيوان يحس ويدرك ويؤذيه الألم ويؤذيه أن يؤذى الآخرين وحتى يؤذيه أن يبنى مركزه الخاص على حساب الآخرين . لقد أدت الرأسمالية دورها التاريخى وآن لها أن تنتهى ، وستنتهى بالقوة والقسوة أو بالتسليم فلابد أن تنتهى لينتهى الألم فى العالم . إن ألم طفل واحد فى فيتنام ليعادل فى رأيى ويزيد عن كل المتعة التى يحسها عشرات الملايين من مالكى العربات فى أمريكا . وتألم زنجى واحد تنهال عليه عصى الحرس الوطنى — وهم البيض العاديون المسلحون — لا يمكن أن يعادله فى رأيى كل متع هوليود ولاس فيجاس وديزنى لاند .

* * *

لحظـــة ٦١

فجأة وجدت مشغوليتى الخاصة تتبخر وأنساها . كان لابد أن أصل إلى الزيتون فى السابعة تماما وكان الموعد هاما جدا ، ولكن العربة وقفت ، كان هناك نهر بشرى هائل يقسم القاهرة قسمين . والمرور ممنوع .. لا بأوامر رجال البوليس والمرور ولكن أولا بحكم هذا البحر الزاخر الذى لا سبيل إلى اختراقه . هبطت وضميرى يتململ بالموعد المخلوف ، ولكنى من ناحية أخرى كنت أحس بفرحة الإقبال على تجربة مثيرة . طالما تمنيت أن أقف بين الناس العاديين .. جماهير الشعب أثناء مرور جمال عبد الناصر لأعرف ماذا يقولون وبماذا يشعرون . كثيرة هى الصور التى نرى بها الرئيس .. صوره وهو يخطب ، صوره فى قراراته كرئيس جمهورية ، صوره فى مواقفه المختلفة وتصريحاته ، صورته وصوته فى الراديو أو فى التليفزيون . كثيرة هى الصور ولكنى كنت أتمنى دائما أن أراه من خلال الناس ، من خلال أبناء شعبنا العاديين .

حاولت اختيار أقل الأمكنة ازدحاما لتتاح لى أكبر فرصة للرؤية ، ولم أوفق فكل مكان أكثر ازدحاما من الآخر ،وهو ليس ازدحاما فقط ولكنه عملية تأنيس هائلة حدثت لكل شيء ، لأرض الشارع والجدران وأعمدة النور والشرفات والمقاعد وأسطح العربات . كلها استحال سطحها إلى بشر وكأنما زرعت لتوها بنبات بشرى سريع التكاثر غطاها ولم يبق ولم يذر ، حتى إنى وجدت صعوبة فى التعرف على المكان وهل هو حقيقة ناصية الساحة

ومحمد فريد — صعوبة سببها هذه الأحراش البشرية التى نبتت فجأة وغيرت جغرافية المدينة .

وقفت كالمذهول أتأمل ما حولى ، وألهث كالغريق فى بحر الناس . أبداً لم أحس بمثل ذلك الإحساس ، لا للعدد الهائل من الناس ولكن لما كان يعتمل داخلهم . كم من مواكب الحكام شاهدناها ، وكم من هتاف وتصفيق ، ولكنه هذه المرة شيء مختلف . إن فى الناس الواقفين اضطرابا ، إنهم لا يستقرون ، قلقون يتحرون ويتفاعلون ، ويضحك بعضهم ويتحدث البعض الآخر ، وفى العيون بريق الترقب . الصف الأول على شط البحر يصبح بالدفع والتسلل الصف الأخير ، ليعود يدفع هو الآخر ويتسلل ، والشارع المحروس برجال البوليس يتسع ويضيق فى موجات متعاقبة ، والواقفون حولى بعضهم صعايدة ينطقون الجيم بالدال ، وجدة عجوز لا تكف عن قولها : هو فين يا خويا .. هو فين ؟ وطفل ممتط عنق أبيه وأبوه واقف فوق سقف الأتوبيس لا يكف عن القول : أهه .. أهه .. وعمال فى فرن يحملون رصص العيش كانوا فى طريقهم إلى الدكان فوقفوا وأرغفة الخبز الساخنة بواخها يتصاعد ، وشحاذ — أى والله شحاذ — لا يأبه لرائحتها ويزيحها بعيدا عن وجهه وأنفه حتى لا تحول بينه وبين الرؤية ، بل وتترى تهديدات الواقفين بعثرة الخبز أو سرقته أوالتهامه لا كجوعى ، ولكن فقط لكى يزيلوه من الوجود . وأخيرا بالدفع والجذب والتضييق يتراجع حاملوا أقفاص العيش إلى آخر الصف ، وسائق الأتوبيس الواقف الطويل الأصلع يقهقه بضحكة عريضة أقسم أنى أحسست بها صادرة من قلبه ، وأقسم أنه لم يكن لها سبب ظاهر ولا أخرجتها نكتة . والعساكر ، أولئك الذين يحمون مجرى النهر من أن تردمه الكتل البشرية يبتسمون ، ابتسامات حقيقية ، ويقولون للشعب

أبو جلاليب : إحنا خدامينكم .. احنا بتوع الشعب . أخيرا عرفت الشوارب الغليظة وأصبحت تنطق — بابتسامة — كلمة الشعب ، نطقا يدفع الصعيدى أبو لبدة الواقف بجوارى ليقول : ده كلاته من فضل أبو دمال . فيلكزه زميله مصححا : الرئيس دمال يا أخينا ..

سـنراه بأعينـا :

وقفت ، وبعد أقل من ثانية كانت موجة الانفعالات الموجودة أصلا غمرتنى وشملتنى ، وأنستنى الزيتون والحلمية والموعد . وأصبح كل اهتمامى مركزا فى وجهى ، وكل اهتمامى بوجهى مركزا كالآخرين فى أن أعثر على مكان بين العدد اللانهائى من الوجود أستطيع منه أن أرى .. الشغف العارم المكتسح وجدته يشملنى ويصبح همى الأوحد أن أرى جمال عبد الناصر ، لا جمال الذى عرفناه ، ولكن جمال شعبى ، جمال هؤلاء الناس .. جمال الذى قادنا ببراعة منقطعة النظير حتى أرسانا ، وأرسى جماهير شعبنا .. هـذه الجماهير على بر الاشتراكية . إنه من بعيد قادم ، وبعد حين سيهل علينا ، الرجل الذى نبع منا وبالقوة أقصى المستبدين بنا ، وبكل إخلاص الابن البار أعاد الحقوق إلينا .. كاملة يا جمال وغير منقوصة . ها هو بعد قليل سنراه .. ابننا وأبونا وأخونا الذى أصبح معجزتنا ، بعد قليل سيمر من هنا ، من أمامنا ، وسنراه بأعيننا ، وكأنما سنرى بأعيننا أحلامنا تتهادى فى موكب حقيقى ، وكأنما سنرى بأعيننا حقوقنا التى كدنا نيأس من ردها وهـى ماضية ، نلمسها ونعانقها فى شوق ونحيها وترد لنا التحية .

ازدادت الحركة إلى درجة دفعت كل واقف منا أن يتخلى عن تحكمه فى وقفته ويترك نفسه على سجيتها ، يفعل بها الدفع والجذب والتنافس لالتقاط

الرؤية الأولى ما يشاء . وسمعنا من ناحية ميدان المحطة تصفيقات ، وعلى الفور تصاعدت من بقعتنا عدة من التصفيق ، ثم اتضح أنها « سيرينة » موتوسيكل يمتطيه شاويش من الحرس الجمهورى . ولم يفعل ما حدث إلا أن ألهب الترقب حتى إن بائع كازوزة حاول أن يرفع صوته مناديا على بضاعته فتولى من حوله إسكاته فى الحال ، ولو لم يسكت لأغلقوا فمه بالقوة . وقال الطفل الراكب أباه مرة : أهه .. أهه .. وتصاعد التصفيق وهتاف الصعايدة : فليعيش جمال ، ولكنه كان قائد المرور فى سيارة مكشوفة . وأطلق سائق الأتوبيس ضحكة أخيرة ثم تلفت بعصبية ناحية أتوبيسه فوجد سطحه فوقه أكثر من خمسين ، وما لبث أن اتجه إلى الأتوبيس فى غضب ظاهر ودخل فى مناقشة غير مجدية مع الراكبين بلا تذاكر خوفا على سطح الأتوبيس . وانتهى النقاش إلى أنه صعد معهم ، وبدا كأنه رضى تماما بالواقع حين أفسحوا له مكانا بينهم . وعادت العجوز التى بدا أنها أم صاحب الدكان الذى نقف أمامه وقد أخرج لها « البنك » وجعلها تثبت أقدامها جيدا فوقه .. عادت تتساءل : هو فين يا خويا .. هو فين ؟ وسمعنا سيرينة أخرى ، وصفق الناس ، وحدثت حركة هرج ومرج هائلة ، وازدادت نوبات ضيق الشارع واتساعه رغم أيدى رجال البوليس التى تشابكت ، ورغم أوامر الضابط ، وكل هذا ولم يكن الموكب قد بدأ أو بدرت له بادرة .

لحظـة عجـز :

وكدت أبكى عجزا ، فيا للعالم الغريب الذى تفتح لى ووقفت على أبوابه ! يا لآلاف المعانى المتزاحمة فى خاطرى من هؤلاء الناس عن أبى الكبير .. هذا الشعب ، وعن ابنه البطل ذلك الزعيم ! ما أروع ما قرأته فى تلك

العيون النهمة إلى الرؤية والتطلع ، ما أعمق المعانى التى أحسستها وعرق الاضطراب الجماعى تندى به الجبهات ، والقلوب أسمعها تدق ، فى قلبى المنفعل وهو يدق ، فى الترقب ، فى التطلع ، لكأننا لا نصدق أنه سوف يظهر ، ذلك الزعيم ، لكنه سيجيئنا من السماء رأسا وعلى هيئة خارقة ، ذلك الحب الصادق أين نجده بهذه المحيطية المتدفقة الشاملة ، الحب النابع من النفس الكبيرة ، نفس الشعب الرابض ملايين السنين فوق وادينا ، المظلوم لآلاف السنين ، الذى عرف كيف يقاوم الظلمة ، وما كان أحد يدرى أن باستطاعته أن يحب العدل والعادلين ، أو إذا أحبهم أن يعبر عن هذا الحب بأقوى مما قاوم به الظلم ، وأن يدرك بغريزته أين الزعيم ، وأن يعرفه ويشمله ويحيطه ويرعاه حين يتصرف فعلا كزعيم ، ويصبح على استعداد ليفقد المئات والآلاف والملايين ليحافظ على حبه عينه ، على أغلى ممتلكاته ، على قائده ..

وأقبل الهدير ، هدير راعد يكتسح ، هدير لا تخطئه الأذن . عرفه الطفل وسكت ، ولم تتساءل العجوز عن معناه . هدير أخرسنا وأسكتنا وأوقف على رءوسنا طير الدهشة والانبهار هدير مختلط شنج الأيدى فى قبضاتها وسكن حركة النبات البشرى المتماوج . ومن بعيد ، ومن أبعد بعيد ، وبأسهل وأسرع مما كان يتصوره أحد ، ورغم عشرات الآلاف من الأيدى التى سبقتنا بالارتفاع والتصفيق ورش الملح والتلويح ، طالعنا الوجه الأسمر المبتسم .. ورأينا أياديه ..

وانفـلت الـزمام ..

وأقسم أن أحدا لم يع ما فعله فى تلك اللحظة ولا أن كان قد هتف أو صفق أو لوح ، فثمة هدير آخر مروع شملنا واجتاحنا .. هدير نابع هذه المرة منا ،

هدير حطم الإطار وألغى الرسميات وكسر جسر البحر ومزج الماء بالشاطئ والموكب بالجماهير وعجلات الموتوسيكلات بالأقدام وزغاريد « السيرينات » بزغاريد السيدات بجئير الرجال بدمدمة الموتورات برعدة الحناجر ، لحظة .. أقل من لحظة ومع هذا فصورتها الشاملة ضخمة ضخامة لا حد لها .. ضخامة زعيم لوى بيديه عنق التاريخ ، لحظة مزجت كل شيء بكل شيء وتحولت فيها الأجساد إلى أصوات ، والآلاف إلى واحد ، والواحد بمفرده إلى آلاف ، بالآلاف وبالآلاف ، من آلاف الأفواه .. آلاف الأذرع تمتد ، وآلاف الأيدى تتكلم وتصدر آلاف الأصوات ، والجو مشحون يهتز .. آلاف الاهتزازات ، والأرض والشجر والشرفات والبيوت والأسطح والقضبان استحالت كائنات تنبض بنبض الجماهير وتهتز ، لحظة تداخلت فيها آلاف اللحظات ، وفقد فيها كل شيء — بمفرده — قيمته .. وأصبحت قيمتها فى كلها ككل ، فى مجموعها كمجموع ، فى آلاف الانفعالات تنبعث من آلاف الصدور وكلها فى وقت واحد تخاطب جمال ، وكأنما كل منها يتصوره له وحده ، هذا البطل المنتصر بطله هو ، ملكه . لحظة لقاء الزعيم بالجماهير ، لحظة تأميم الزعيم ، لحظة فرحة الجماهير بالتأميم وفرحة الزعيم بتأميمه ، لحظة روعتها فى كليتها ، فى حاضرها المدوى الخاطف ، فيما حدث قبلها وبعدها ، فى سبيلها وفيما سيترتب عليها ، فى جذورها السحيقة التى تمتد إلى آلاف السنين ، وقممها النامية التى ستخترق آلاف السنين ، فى الأهوال والانتصارات ، فى الأرض للناس وبالناس ، فى الوجه الأسمر من ملايين الوجوه السمر ، فى المناديل البيضاء فى الشرفات ، فى زغاريد الإناث ، فى عيد الأطفال فى الحدث الذى هز الرجال ، فى الذى تبعثر تماما وسها حامله عنه ، فى دقات أقدام الطفل القوية القاسية على صدر أبيه لوصول جمال ، فى

العجوز حين عجزت عن الزغرودة فدعت وخرج دعاؤها حبيبا طيبا يقول : يخليك يا بنى لشبابك ، ربنا يخليك . فى السماء المدمدمة بهدير الطائرات ، فى الأرض المدمدمة بهتاف صاعد إلى السماء ، فى مدينة تزأر ، فى جمهورية تنتفض ، فى شعب مارد يجد أخيرا جدا ، نفسه ، روحه ، فى زعيم ..

لحظة .. هأنذا عاجز عن وصفها .. عشتها ورأيت فيها ملايين الرؤى والانفعالات ، ولكن أين هى الآن ؟ أين اللفحة المقدسة وسحرها ؟ اللفحة التى تحيل الحاكم إلى زعيم ، والزعيم إلى إنسان يهب عمره كله وما هو أكثر من عمره وحياته ليفتدى اللحظة ، ويفتدى الإحساس ، ولكى تظل القلوب تنبض له بمثل ما نبضت ، وأحلام شعبه تحيط به مثلما أحاطت .. والصدور ، آلاف ملايين الصدور تتفتح وتدعوه وترقق من نفسها لتحنو عليه وترعاه مثلما رأيتها تفعل ..

لحظة عشتها وكل ما أملك قوله عنها ، إنى بها أحسست ، ربما لأول مرة فى حياتى بشىء حقيقى باهر فى حقيقته إلى درجة لا تقبل ترددا أو شكا ، بل شىء أقوى من كل حقيقة أو حقيقة عرفتها أو وعيت بها ، أقوى من حقيقة وجودى أو حياتى أو ما أومن به ، أقوى من المدينة الكاملة التى رحت أسير بلا وعى فى طرقاتها . أقوى لأنه أخلد من أى مدينة أو بلدة أو عقيدة ، فهو اللحظة التى تخلق المدن والبلاد والعقائد .



تجربة عيد جديد

أردت أن أقضى العيد وأقوم بتجربة فريدة فى نوعها ..

والعيد كلمة ، ومناسبة ، وبلسم ، كالدواء ، يعالج الكثير من الجروح والمرارات ..

وأنا ممن يؤمنون أن مصر هى القرية .. ليست القاهرة ولا الإسكندرية ، ولا « البدل » والفساتين والمستحضرات وارد الخارج والداخل ، وإنما الشعب ، ليس الطيب ، فشعبنا ليس طيبا بالمعنى الساذج الدارج السخيف للطيبة ، وإنما هى طيبة الذكى أو ذكاء الطيب .

وقريتنا ككل قرية فى مصر ، ككل إنسان ، كانت لها مشكلتها الخاصة .

ومشكلة قريتنا الخاصة أنها مكونة من عائلات ، بعضها غنى ، وبعضها قوى ، وبعضها كثير العدد فقير ، بعضها صاعد ، بعضها بدأ يهبط ، الموجات الضخمة التى أحدثتها الثورة فى حياتنا بدأت تصل إلى القرية منذ بضع سنين ، وتغير كثيرا من الأوضاع ، وتجعل من كل قرية صورة مصغرة لبلد بأسره يغلى بالثورة ولا يجد الطريق ، فالعائلة التى كانت تحكم قريتنا ، وهى ليست عائلة إقطاعية عاتية كما قد يتصور البعض ، إلا أنها كان منها العمدة « الملك » وشيخ الخفراء « وزير الداخلية » وأيضا كان منها معظم المثقفين .

وقد جاءت الثورة ، ومع مجيئها بدأت طبقات كثيرة ترتفع فى السلم الاجتماعى ، وبدأ تاجر الأسواق الصغير المتنقل دوما بين الأسواق يصبح له دكان ، والفلاح يرسل ابنه إلى المدرسة المجانية ، وجيوش من المتعلمين

وأنصاف المتعلمين والحرفيين تكون ثقلا جديدا ، وتيارا جديدا . وما كادت تحدث أول انتخابات حتى أسقطت العائلة العريقة الحاكمة وبدأ لأول مرة فلاحون وحرفيون وموظفون صغار يصبحون هم هيئة الاتحاد القومى ، ثم الاتحاد الاشتراكى .

ثم تبدأ المشكلة الضخمة حين يحدث الصراع حول من يكون العمدة ، وقد أعفى العمدة القديم من منصبه .

باختصار ، بدأ صراع رهيب حول من يحكم قريتنا ، وإلى من تئول السلطة ؟ هل تئول للطبقات الجديدة التى بدأت توجد على نطاق واسع بتفكر جديد ، وبمنطق جديد ؟ طبقات معظمها لا ينتمى إلى عائلات . أو تئول للعائلات ، وماذا يكون موقف العائلات من الأوضاع الجديدة ؟ هل تتحالف مع بعضها ليبقى لها النفوذ ولتقف فى وجه التيار الصاعد ؟ هل ينسلخ بعضها ويتزعم التيار ضد العائلات المنافسة ؟ وماذا يكون السلاح فى هذا الصراع ؟ هل يكون القوة الغاشمة ؟ هل تكون المسايسة واللين ؟ هل تكون المقالب والمآزق والشكاوات والنكايات ؟ عشرات وعشرات من الأسئلة والاحتمالات . غليان غريب مفاجئ اجتاح قريتنا حدثت فيه تحزبات لمبادئ أحيانا ولأشخاص ، وانقسامات ، ومحالفات ، ونقض لمحالفات : وأشكال جديدة من أشكال الصراع كان الناس يعجبون لها ويستغربون ويترحمون على الزمن الغابر حين كان هناك السلام والوئام والخضوع والخنوع ، واليوم لم يعد أحد « يحترم » أحدا ، أو ينزل عن ركوبته إذا قابله ، أو ينتفض واقفا إذا مر عليه . اليوم كل إنسان أصبح يقول للآخر : أنا زيى زيك ؟ أنا مثلك .. وفى أحيان : أنا أحسن منك .

ولقد ظللت أراقب ما يحدث وأنا سعيد ، فهذه الخلافات التى يتصورها

أبناء قريتنا ، وهذا الشد والجذب ، وهذه الخناقات والاجتماعات والتحزبات ، هى الثورة .. هى عملية الانصهار الضخمة التى تحدث للمجتمع وترفع من درجة حرارته ليعيد تشكيل نفسه من جديد ، وعلى أسس جديدة ، لتندحر وتزول قيم كانت سائدة ومستشرية ، ولتنمو قيم جديدة ، وهكذا وبامتداد ذلك الوضع الطبيعى الصحى فى القرية إلى أكثر بكثير من مداه تحول إلى مرض ووباء ، وبدل من أن يؤدى الاختلاف والتحزب إلى العثور على الحقائق الجديدة والحلول الأحسن استحال إلى مرض اسمه التعصب ، وانقسمت القرية إلى معسكرات متعصبة متعاندة متحاربة متشاتمة . تعصب لا هدف له إلا التعصب ذاته ، بل تنقلب أهدافه فى النهاية إلى أضرار . فأى مشروع مفيد يتبناه أحد الأطراف يسارع الطرف الآخر إلى الوقوف ضده وإفشاله لمجرد أنه صادر عن معسكر مخالف أو معاد ..

وهكذا أيضا توقفت حركة النمو الطبيعى فى القرية ، حركة الدفع الذاتى الذى كان لابد أن يؤدى بهذا المجتمع الصغير إلى الوصول إلى مرحلة التصنيع مثلا كما حدث لمصر المدينة . وحركة الغليان التى كانت تشمل المجتمع كله خمدت بين الجماهير والقاعدة ، وظلت مستمرة بين القيادات .. من يحكم القرية ؟ لمن تكون السلطة ؟ استمر الغليان واستمرت القاعدة تتفرج عليه زمنا ، وتتناقل أخباره باعتباره مصنعا للأحداث فى القرية التى نادرا ما تدور فيها أحداث . ولكن بمضى الوقت ، وبإدراك الناس أن هذا الصراع شخصى محض وذاتى محض وهدفه السلطة لا أكثر ، بدءوا يضيقون به ، ثم بدءوا يثورون عليه ثورة صامتة فى أحيان ، أو آخذة شكل التعليقات المرة الساخرة فى أحيان .

وجاءت انتخابات العمودية لتشهد القرية أعنف صراع فى تاريخها ،

صراع لولا زهد القاعدة الجماهيرية فيه لانقلب إلى معركة دموية رهيبة . صراع جعلنى أوقن أننا قد آن الأوان للتخلص من نظام العمودية هذا وذاك « المرض العثمانى » كما سماه فهمى أبو عقل أحد أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى قريتنا . ذلك النظام الذى يتيح لفرد واحد أن يكون « عمدة » على مجموعة جماهيرية ضخمة . نظام لابد من استبداله بحيث تكون القيادة والزعامة للجنة ، بحيث تكون القيادة والرئاسة جماعية لا أثر فيها لاستبداد الماضى ونظامه الفردى المطلق .

جاءت انتخابات العمودية لتزيد الطين بلة ، وليصل المرض إلى حد اليأس والزهد .

وفى ذلك الوقت جاء العيد والقرية قد تقرر إقامة وحدة صحية فيها ، ولكن المحافظة تشترط لإقامتها أن تتبرع القرية بثمانية قراريط لتقام عليها الوحدة . وقد حاولت لجنة الاتحاد الاشتراكى من ناحيتها جمع التبرعات لشراء الأرض اللازمة فقضى التعصب على محاولاتها . فما دام الذى سيقوم بجمع التبرعات من هذا الفريق فلابد للفريق الآخر أن يعارض ويرفض ، وميزانية الوحدة معتمدة ، ومبلغ يوازى خمسة آلاف جنيه مودع فى البنك فى انتظار الأرض ، والمرضى فى القرية كثيرون فى حاجة ماسة ملحة إلى العلاج ، والتحزب والتعصب يقف حائلا بين القرية وبين تحقيق هذا المشروع وبين بناء مدرسة ، وبين إقامة ناد ومصنع ، وبينها وبين أى خطوة إلى التطور والتحضر .

وفى العيد — كمحايد — قررت أن أقوم بتجربة ، فبدلا من محاولة إصلاح الحال بين الزعماء والقيادات والأحزاب ألجأ إلى جماهير القرية مباشرة ، إلى الفقراء والمحتاجين والعاملين الصغار الذين يكونون الآلاف وأن أجمع منهم ،

ومن قروشهم ، مبلغ الأربعمائة جنيه اللازمة لشراء الأرض .

وهكذا بعد صلاة العيد قمت أدعو الناس للتبرع وأشرح لهم حيوية المشروع ، والهوة التى تردت فيها القرية بسبب الخلافات . والحقيقة أنى مهما تصورت فلم أكن أبدا أتصور أن الاستجابة ستكون بهذا الحماس ، فأنا أكتب هذه الكلمة من قريتنا فى ثانى أيام العيد وأمامى ترقد أكثر من ثلاثمائة جنيه جمعت فى يوم واحد ، من قروش الفقراء ، وخمسات قروشهم ، وأرباع جنيهاتهم . فجأة تحول العيد إلى حمى ، إلى حماس ملتهب من أجل إقامة المستشفى ، وسرت الروح إلى كل بيت ورجل . وفى ساعات كان المبلغ يتكاثر بطريقة مذهلة ، وإلى ساعة متأخرة من الليل كان باب بيتنا يدق ، وشخص يدخل ، أفقر حلاق فى قريتنا . ذلك الذى لم يتجاوز ما جمعه من قص شعور الناس لحلقة العيد أكثر من خمسين قرشا ، يدق الباب ومعه ريال .. أجل عشرون قرشا كاملة ، يريد وبحماس شديد ، أن يضيفها إلى قائمة التبرعات . وكان لا يمكن لحماس هائل كهذا إلا أن يظل يزحف حتى يدخل على الأعيان والقيادات والأحزاب منازلها ، فإذا بهم هم الآخرون يتسابقون للتبرع وقد وجدوا التيار الجماهيرى يغادرهم ويتركهم فى خلافهم وينلفع ناحية عمل من أجل القرية كلها ، وليس من أجل من يرأس ، ولا من يتزعم ..

وما أذهلنى أكثر أن هذه الحملة الاستفتائية التبرعية لم تكشف أن الناس يريدون عملا واضحا محددا فقط ، وإنما كشفت أيضا أن الخلافات تظل قائمة ما دام ليس هناك عمل . وحيثما وجد العمل زال الخلاف من تلقاء نفسه .. ففجأة أيضا ، وبعد خمس سنوات من الصراع الدموى الرهيب الذى سقط فيه قتلى وجرحى وأنفقت فيه آلاف الجنيهات وترسبت آلاف الأحقاد ..

فجأة وجدت الأطراف المتنازعة تحس ، وقد انسحبت الجماهير من تحت راية التعصب إلى راية العمل ، تحس أن خلافها لا أساس له ولا معنى ، وأنها غير متحمسة إطلاقا للمضى فى هذا الخلاف ، وأن المرشحين للعمودية والذين كان قد تقرر إعادة الانتخاب فيما بينهم على استعداد للتنازل جميعا عن ترشيح أنفسهم وتناسى كل شىء .

وهكذا فى يوم واحد جمعت القرية مبلغ المال اللازم لإقامة المستشفى ، وانتهى الصراع حول الحكم .

وفى صلاة الجمعة وجدتنى أزف إلى قريتنا أسعد خبر تنتظره . وهو أن جميع قياداتها المتنازعة قد اصطلحت ، وأن السلام قد حل فى القرية ، وآن لها أن تحتفل بالعيد الحقيقى .

إنها تجربة من قريتنا .. أهديتها لكل قرية حل أو يحل فيها خلاف .



الســارق والفــزورة

جميل جدا هذا النشاط التثقيفى والترفيهى الذى تحفل به حياتنا . جميل جدا أن يكون لنا ناد للسينما تعرض فيه أروع الأعمال . جميل أن يكون لنا جرائد يومية ومجلات تنشر صورا وأحاديث وقصصا . جميل جدا هـذا الجانب من حياتنا ، مهم جدا ولازم وضرورى .. ولكن المشكلة أن حياة الناس والشعوب لا تستقيم أبدا هكذا بساق ثقافية ترفيهية فنية واحدة . لابد للحياة كى تستقيم من ساقين .. الساق الأخرى هى الإنتاج الجدى الدائب الذى نصنع به بلادنا ونقهر به أعداءنا ونبنى الغد . ولقد كنا قبل حرب الأيام الستة نعتقد أن هذه الساق الثانية الجادة موجودة ودائبة العمل . كنا نعتقد أننا مهما أسففنا فى التهريج أو مهما بالغنا فى الترفيه عن أنفسنا ، فسيبقى لنا دائما هذا الجانب الجاد ممثلا فى محافل علمية جامعية وغير جامعية ، وفى قوات مسلحة برجال وعتاد وروح علمية حقيقية ، وفى صناعة وطنية تبنى على أسس متينة ، تبنى لتعيش مائة عام أو ألفا أو إلى الأبد . ولكن عدوان ٥ يونيو أثبت لنا للأسف الشديد أن هذا الجانب العلمى الجاد الخطير غير موجود بالمرة ، أو إذا كان موجودا فهو موجود بشكل غير علمى وغير جاد بالمرة ، موجود أيضا بشكل سطحى تظاهرى ترفيهى مثله مثل ساقنا الفنية الأخرى . وقد كنا ننتظر أن يكون أول حركة لنا بعد النكسة هى عملية بناء عاجلة فائقة النشاط ، ليس فقط لقواتنا المسلحة ، إنما لهذا الجانب الأساسى من جوانب حياتنا كلها . ولكننا اليوم نتلفت لنجد للأسف أن شيئا من هذا لم يحدث ،

فطاقتنا كلها لا تزال موجهة إلى فنون المسرح والاستعراض والأشكال الفنية الجماهيرية الأولى . لا تزال أهم قضايانا هى حسن الإمام وبين القصرين ، ومشكلة الأغنية هى المشكلة الملحة التى لابد أن نفرد من أجلها الصفحات ويدور النقاش بانفعال صارخ وبحدة وكأنها مسألة حياة أو موت . لا نزال كما كنا تماما بدليل أنى قرأت بعينى رأسى أن مشكلة الغناء فى مصر هى أن بسلامته الأستاذ شفيق جلال مريض بالإنفلوانزا وأنه زعلان لأن أحدا من زملائه والمعجبين به لم يسأل عنه ، ولذلك فقد تطوع وأعطى لبـاب أبو نضارة رقم تليفونه ليسأل عنه الناس ويحدثهم عما فعلته الإنفلوانـزا الملعونة به .

لو كان ما حدث فى ٥ يونيو قد حدث لشعب آخر لترك كل شىء فى حياته .. الثقافة والسينما والحب وأى شىء ونذر نفسه لعملية إثبات وجوده أولا كإنسان يستحق الحياة على ظهر الأرض أو لا يستحقها بالمرة ، إن ما حدث ليس أمرا هينا بالمرة أيها السادة .

هكذا صورونا .. ملايين من الغوغاء التى تركب كل شىء وجرت أمام إسرائيل الصغيرة ذات المليونين . وصحيح أن شيئا كهذا لم يحدث ولكن العالم معذور إذا صدق الصورة وإسرائيل فى ستة أيام قد أتت على تجهيزات ثلاث دول عربية قامت بها فى بحر عشر سنوات وأكثر .

إن أى شعب فى الدنيا ما كان باستطاعته الصبر على ما حدث فى ٥ يونيو . أى شعب كان لابد سيهب نفسه وكل ذرة قدرة لديه وطاقة فى سبيل محو هذه الصورة المشينة وإثبات أنه ليس شجاعا فقط وليس أقوى بكثير مما يظن أعداؤه ، ولكنه قادر على النصر إذا شاء .. قادر ليس فقط على استعادة أرضه وحقه وسلاحه ولكنه قادر على أن يصنع بأرضه ومعداته ومؤسساته وسلاحه

حضارة تشع بالنور وتضيف إلى تراث الحضارة فى العالم .

وما دامت الفوازير قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من حضارتنا فى العصر الراهن ، ما دامت قد أصبحت مخزن ١٣ والسر الذى سنغزو به الحضارات الأخرى ونهزمها مثلما هزمت الحضارة الفرنسية أوربا الرجعية بمبادئ ثورتها ، وغزت إنجلترا العالم بثورتها الصناعية ، وأمريكا بالتكنيك ، وروسيا باللينينية ، ما دمنا سنغزو العالم بفوازيرنا فإليكم فزروة يحتار العقل فى حلها ويعجز ، الفزورة هى :

كيف استطاعت كوريا الشمالية وتعداد سكانها (١٠) عشرة ملايين نسمة أن توجه هذه اللطمة الرهيبة للمارد الأمريكى العملاق ؟ كيف استطاع بلد صغير هذا شأنه ، هذا البلد الفقير الذى يبلغ متوسط دخل الفرد فيه مبلغا أقل بكثير من متوسط دخل الفرد فى أى بلد عربى ، كيف استطاع بلد كهذا أن يهلك من أعدائه فى الحرب الكورية مليونا و ٩٣ ألفا ما بين مدنى وعسكرى وقتيل وجريح بما فيهم ٣٩٧,٠٠٠ جندى أمريكى ، وأن يسقطوا ١٣,٠٠٠ طائرة ويتلفوا ٣٠٠ دبابة و ٥٥٠ بارجة حربية ، وكيف استطاعوا اليوم أن يأسروا باخرة التجسس هذه وأن يمرغوا الأنف الأمريكى المهيب فى الوحل ؟

بعض المتسرعين سيقولون إنها تفعل هذا اعتمادا على حلفائها فى الصين والاتحاد السوفييتى ، ولهؤلاء أقول : إننا أيضا بوسعنا الاعتماد عليهم بل اعتمدنا عليهم . بعض الناس سيقولون ربما الفرد الكورى أشجع من الفرد العربى ، ولهؤلاء أقول : إنه حين يأتى الأمر للشعوب فلا يوجد شعب فى العالم أشجع من شعب ، فقد يوجد أفراد جبناء لدى كل شعب .. هذا صحيح ! ولكن هناك دائما عددا أكبر من الشجعان بحيث إن مستوى الشجاعة يتساوى لدى كل

الشعوب .

ما هو إذن حل هذه الفزورة الغريبة ؟ كيف تملك كوريا ذات العشرة الملايين هذه القدرة الخارقة على مواجهة العدوان الأمريكي . بينما لا نملك نحن ذوو الثمانين مليونا قدرة مماثلة ، ليس على مواجهة العدوان الأمريكي نفسه وإنما على مواجهة ذيل من ذيول العدوان الأمريكي ، إسرائيل ذات المليونين ؟..

إن حل الفزورة — أيها السادة المستمعون — واضح وبسيط ، الحل إن العشرة الملايين هؤلاء لهم قيادة واحدة لا تخاف أمريكا وتربي شعبها على الاستهانة بها .

إن الشعوب لا ذنب لها أبدا ، فهي إذا طلب منها البذل تبذل ، إذا طلب الموت تموت ، إذا طلب الصبر والاحتمال تصبر وتحتمل . المشكلة دائما هي في القيادة . ليس حتى على مستوى الدولة أو الأمة العربية كلها وإنما حتى على مستوى المدينة والقرية والوحدة . إن مشكلتنا هي تلك التي تضعفنا إلى حد العدم ، تلك التي تجعل قوتنا تتضاءل إلى حد لا نستطيع معه مواجهة ذيل من ذيول الاستعمار .

ماذا لو قامت الشعوب العربية بالجهد ؟ ماذا لو انعقد مؤتمر للقيادات الثقافية والمهنية والعمالية والزراعية في عالمنا العربي ، مؤتمر مسئول يساهم في حمل المسئولية مع الملوك والرؤساء ، مؤتمر يجعل القضية ليست فقط مسئولية الملوك والرؤساء ، وإنما يجعلها مسئولية الشعب كله بكل فئاته وطوائفه ؟ أما أن نبقى جميعا مثقفين وعمالا وكتابا وقادة وحكماء ومفكرين .. أن تبقى كل إمكانيات هذا الشعب الفكرية والعقائدية والكفاحية والثورية وهي ضخمة هائلة الضخامة ، تبقى كل تلك الإمكانيات ويبقى معها الشعب في

مدنه وقراه ومزارعه ومصانعه ؟

إن على القيادات الشعبية فى كافة الدول العربية أن تتحرك لكى يتحرك الشعب العربى ويحمل القضية ويوجد كعامل حاسم فى الموقف . فالشعب إلى الآن غير موجود . القضية فى حاجة إلى كتف كل فرد من أفراد الشعب العربى وإلى ساعده .

إن على الشعب العربى أن يدخل لنخرج من دائرة الركود والاستسلام تلك التى طالت وأصبح السكوت عليها أمرا لا يطاق ولا يحتمل . وخير لنا أن ندخل الشعب العربى بإرادتنا — أى بإرادة رؤسائه وملوكه — خير ألف مرة من أن ننتظر ونسوف حتى يدخل رغما عن هذه الإرادة ، فلم يعد أحد يطيق الانتظار .

والله حتى لو اضطررنا للمشى لقناة السويس وغزة والقدس بأيدينا الجرداء وهراواتنا ، ولتحصدنا المدافع ما تشاء ، خير ألف مرة من أن نظل هكذا واقفين فى انتظار « جودو » أو « يانج » الذى لن يحل المشكلة .

فلنتفق ، ولنؤمن أن انتظارنا لحل القضية على يد هيئة الأمم أو الدول الكبرى عبث وسخف وضياع للوقت . حل القضية فى يدنا وفى هراواتنا إن عز السلاح ، وفى ملايينا الكثيرة المشتتة الجهد المكدسة فى مدننا وقرانا فاغرة الأفواه تائهة لا تعرف ما العمل .

فلنتحرك بها صوب القضية قبل أن تتحرك من تلقاء نفسها .

* * *

الأخـلاق القديمة

خيـانة عظـمى

قرأت بإمعان تفاصيل قضية امتحانات الثانوية العامة .. أصبت بعد قراءاتها بدهشة . فالمتهم الأول ، ذلك الموظف الكبير فى المطبعة السرية ، لم يقدم على جريمته بدافع المال أو الرشوة أو المتعة .. أقدم عليها بدافع أغرب ، بدافع الشهامة ومحاولة مساعدة ابن صديقه ، والمتهم الثانى أو الثالث الابن لم يقدم على جريمته هو الآخر ويوصل الأسئلة لابن عمه إلا بدافع غريب آخر ، دافع الحرص على مصلحة ابن عمه .

دوافع غريبة لا شك لارتكاب جريمة ، لا تخفف (نظافتها) الظاهرة من بشاعة الجرم ، بقدر ما تضاعفها .

وليست هذه أول ولا آخر جريمة ترتكب فى بلادنا بسبب هذه الدوافع المجيدة ، فالأمثلة كثيرة وتقع تحت سمعنا وبصرنا كل يوم . والشىء الخطير أنها تدل على أن بعضا منا لا يزال يحيا فى حدود أسرته ومعارفه وأصدقائه لا يعرف غيرهم ، ولا يقيم وزنا لغيرهم . هم الدائرة الوحيدة التى يتحرك داخلها ويحسب لها حسابا .. أتتصورون هذا ؟ بعد كل معاركنا التى خضناها كشعب ، وبعد كل هذه الأحداث الهائلة التى كانت كفيلة بإذابة كل ما بيننا من حدود ذاتية وشخصية ودمجتنا على هيئة أمة واحدة وشعب واحد .. بعد كل هذا لا يزال بعض منا لم يحس بأنه قد أصبح فردا فى شعب كبير ، ولا تزال

دائرة أسرته ومعارفه وبلدياته هى شعبه الوحيد الذى ينتمى إليه .. الخيانة فى نظره أن يخون هذه الدائرة الضيقة .. والشهامة أن يقدم على عمل من أجلها حتى لو أودى عمله هذا بمصلحة بقية الشعب .

هؤلاء العائليون لا يزال يحفل بهم مجتمعنا و لم ينقرضوا بعد ، ولا تزال علاقتهم بنا كشعب علاقة خوف فقط .. وربما لهذا السبب أوصى الموظف ابن صديقه أن يتكتم الأمر حتى لا يفتضح أمره ، أى تصل أخبار فعلته « الشهمة » إلى أسماع المجتمع الكبير ويعاقبه عليها ..

إن الحكم الذى صدر على الجناة فى هذه القضية درس من الواجب أن يتدبره كثيرا أولئك العائليون الذين من الممكن أن يكونوا قد ارتكبوا جرائم ضد مجتمعهم الكبير من أجل مجتمعاتهم الصغيرة الضيقة ، أو الذين لا يزالون يرتكبون جرائم كتلك ، أو ليس لديهم مانع من ارتكابها على الأقل .. إنه درس لمن يضع نفسه قبل عائلته ، ومعارفه قبل مدينته أو قريته ، وبلدته الصغيرة قبل بلاده الكبيرة .. آن الأوان لكى يدرك هؤلاء أننا نحيا فى وطن قد تحرر وأصبح كله لنا ، ولابد أن يضع كل منا وطنه هذا قبل بلدته ، وبلدته قبل عائلته ، وعائلته قبل نفسه .. وهذا هو الفارق الأساسى بين ولائنا بالأمس وولائنا اليوم . بيننا كعبيد مستعمرين فى الماضى وأحرارا مستقلين فى الحاضر . فارق يجب أن يفكر كل منا فيه ويتأمله ويغير مثله فى الحياة وفلسفته وأهدافه على هداه ، وإلا استيقظ يوما ليجد نفسه مقبوضا عليه بتهمة الخيانة لشعبه ومجتمعه جزاء عمل بطولى قام به نحو أسرته أو نفسه أو الدائرة الضيقة التى يعيش فيها .

وشىء آخـر ..

درس ثان خرجت به من قراءتى للقضية .. الدرس أن ما يحدث خلف

الناس لابد أن يظهر يوما أمامهم . إن كثيرين منا يقدمون فى أحيان على أعمال مخجلة لعل ما يدفعهم أساسا لارتكابها أنهم يعتقدون أن أحدالن يعرفها وأن أمرها سيبقى سرا لا يصل إليه كائن من كان . ألا يعرف هؤلاء أن العمل الخبيث تفوح رائحته مهما تكتم صاحبه الأمر ؟ وإنه إذا كان للإنسان أنف واحد أو عينان فالناس لهم ملايين الأنوف والآذان والعيون مصوبة فى كل اتجاه ولا يمكن أن يستغفلهم أو يضحك عليهم أحد ؟ هم الذين يضحكون دائما آخر الأمر ، ويضحكون كثيرا ، يضحكون على الجبناء الذين يطلون وجوههم بأقنعة العفة والطهر بينما هم فى الداخل أشد بشاعة من القتلة والمجرمين .. لقد أقدم الموظف المحترم على فعلته مثلا وهو ضامن أن الأمر لن يتعدى حدود صديقه وابنه ، و لم يكن ليعتقد أبدا أو يحلم أو يتصور أن الأمر سيشيع إلى تلك الدرجة . سذاجة لاشك ، ودفن للرءوس فى رمال الخفاء التى لا تخفى شيئا ، فما يحدث من وراء الظهور لابد أن يظهر يوما .. قد يظل خافيا لفترة ولكنه لن يظل خافيا إلى الأبد ، ولابد لكل خاف أن يعرف ، وقد يعرف ببشاعة أو بطريقة لم تخطر على البال ، أو دائما هناك طرق لا تخطر على بال أولئك الذين يتسترون بظهور الناس لارتكاب جرائمهم ، أو دائما يفاجئون بالأضواء تنصب عليهم ذات يوم من كل ناحية وهم واقفون ، خجلون ، محاصرون فى ركن .. لماذا لا نفكر فى طريقة أشرف وأنظف للسلوك ؟ لماذا لا يضع كل منا فى اعتباره أن يتحمل مسئولية ما يفعله من وراء الناس ؟ إنها ليست شجاعة .. ولكنها ألف باء تصرف أى كائن يريد أن يكون له شرف أن يسمى بإنسان ، تحمل المسئولية ، وأولها مسئولية الخطأ .. لماذا نظهر للناس محاسننا دائما ونخفى أخطاءنا بجبن ؟ لماذا نصر على أن يرى الناس نصف وجهنا فقط ونكابر بسخف لكى لا يروا النصف الآخر ؟ إنها ليست

قيما جوفاء أطالب بها ، ولكنها فى الحقيقة مسألة عملية محضة ، فالمسئولية — بما فيها مسئولية الخطأ — لا يستطيع أحد أبدا أن يهرب منها .. إننا نتحملها سواء أردنا أم لم نرد . الفرق أننا حين نتحملها من تلقاء أنفسنا يصفح الناس عنا وينسون ، أما حين نكابر ونوغل فى الهرب منها فإنها لا تهرب منا ، ودائما يأتى اليوم الذى نجبر فيه على حملها علانية وعلى رءوس الملأ والعار يجللنا .. هو نفس الفرق لو كان الموظف الكبير قد تقدم من تلقاء نفسه واعترف للوزارة بخطئه وبما فعله وطلب أن تتغير الامتحانات ، وبينه اليوم ورأسه منكس وظهره إلى الحائط ونظرات الاشمئزاز تحيط به من كل جانب ..

إنى لأشفق على الكثيرين من نفس المصير ..



أدب ثقيل الدم

لتوى انتهيت من الاطلاع على بضع مجلات شهرية بعضها من القاهرة والآخر من بيروت . وللمرة الألف أحس ذلك الإحساس الذى يراودنى كلما طالعت كثيرا من المقالات التى تنشرها المجلات والجرائد ، وسأكون صريحا وأنقل بالضبط ذلك الإحساس ، ومهمتى سهلة ، فإحساس واحد يشملنى طيلة القراءة ، إحساس ــ وليعذرنى الزملاء والإخوان ــ بالتصنع ، و .. « التأدب » ! من أول كلمة أحس وكأن الكاتب قد أدرك أنه بسبيله إلى القيام بعملية غير عادية ، وأن عليه أن يسوك فمه مثلا بسواك ، ويتأنق ويجلس جلوس الكاهن الأعظم أمام آلاف المريدين والمتعبدين ، محترما فى جلسته ، محترما فى إشاراته وإيماءاته ، كلماته لابد أن يختارها من النوع الجاد انوقور ، وأسلوبه لابد أن يحوى كثيرا من أمثال هذه التعبيرات : وعقيدتى أن الوضع لا يتأتى .. أو إذا نحن نظرنا إلى المنهج من زاوية أخرى لألفيناه كذا وكيت .

وبحكم هذا الاحترام الزائد والطقوس ، ليس من العجيب أن تجدهم قد أطلقوا اسما ثقيل الدم على ما يكتبون ، إذ هم يسمونه « أدب المقال » . ورغم احترامى للتسمية ولهذا النوع من « الأدب » ، ولكل أنــواع الأدب ، ولكتّاب أى نوع ، إلا أنى لا أزال إلى الآن لا أفهم ذلك المسمى بأدب المقال .. فأنا أعرف مثلا أن الكاتب حين يريد كتابة قصة يصبح هدفه أن يكتب قصة ، وحين يريد تأليف قصيدة يقول شعرا . أما المقال فهو لا يلجأ إليه

إلا حين تتراكم لديه أفكار غير قصصية وغير شعرية وغير مسرحية ، يعنى عنده أخبار مثلا ، أو معلومات أو وجهة نظر معينة أو حقيقة علمية يريد إيصالها للقارىء ، هو حينئذ ينبذ كل الوسائل غير المباشرة ويلجأ إلى الوسيلة الوحيدة المباشرة .. المقال . بمعنى أدق إذا كان أدب القصة تقاس جودته بما فيه من فن القص ، والشعر بما فيه من تعبير شعرى ، فأدب المقال مقياس جودته ما له من قدرة على الإيصال المباشر والشفافية ، والخلو من كل ما قد يعوق الأفكار عن القارئ ، أى أدب أن تقول « ما يفهم » . وكلما قلته بأبسط وأسرع وأشف طريقة ، اقتربت من روح أدب المقال . بعض إخواننا فهموا ولا يزالون يفهمون أدب المقال على أنه نوع « تنقل » فيه أفكارك إلى زملائك وقرائك ، ولكنه النوع الذى تتخذ فيه من زملائك وقرائك موقف المعلم والمدرس وتصطنع فيه وقار الأستاذ . كارثة المقالات عندنا أنها دروس ، وليتها من أساتذة كبار حقا ، معظمها فى الحقيقة من تلاميذ يحاولون أن يوهموا القارئ بأستاذيتهم ، إيهاما متعجرفا محشوا حشوا بأسماء الكتاب الأوربيين والفلاسفة ، مظهرا عضلات الثقافة فى مراهقة صبيانية تحس أن الكاتب خلالها يتقيأ محصول قراءاته قبل أن يصل إلى بلعومه وقبل أن يهضمه ويصبح جزءا لا يتجزأ من كيانه ونفسه . إنه محصول ضئيل يعمد إلى إظهاره وتضليل القارئ به ، وكل همه أن يثبت أنه عالم ويثبت لقارئيه أنهم جهلة ، حريصا فى الوقت نفسه على طقوس الكتابة أكثر من حرصه على سبب الكتابة وموضوع الكتابة . والمهم فى أسلوبه هو بلاغته وليس مهما أبدا طعمه ، والهدف الوحيد أن يخرج القارئ من قراءته وهو يحمل للكاتب كل الاحترام والتقدير حتى لو خرج من المقال كما دخل .

ولعله لهذا السبب تتشابه كثير من المقالات التى نراها فى الجرائد والمجلات

تشابها غريبا وكأنما كتبها كاتب واحد . لا تجد فارقا بين مقال كتبه شيخ وآخر كتبته سيدة أو أنشأه شاب . الكلمات مرصوصة بنفس الطريقة . وإظهار الحجج يتم على نفس النسق ، والخيط المستعمل واحد ، يبدأ بالمقدمة يليها الدخول فى الموضوع ثم قرب النهاية تجد الكاتب يلتقط أنفاسه ، وجميعا يفعلون هذا بنفس الطريقة ويقولون : وبعد .. أو أجل .. إلى آخره ..

وعبثا تحاول أن تبحث عن ذاتية الكاتب فيما يعرضه من موضوعات . وبالذاتية لا أقصد أن يفرض الكاتب ذاته على الموضوع الذى يتناوله ، ولكنى أريد أن أحس أنه هو وليس أحد غيره ذلك الذى يعرض أفكاره ، أريد أحيانا أن أراه وهو يفكر وهو يحاول بطريقته الخاصة أن يصل إلى استنتاج . أريد أن أستمتع بالطريقة التى يرتب بها أفكاره وسرعة بديهته فى إيجاد الحل . فإذا كانت ميزة الشاعر تتجلى فى كونه يعالج الموضوعات ويعبر عنها بالشعر ، ولكنه يفعل هذا بطريقته الخاصة ، فكذلك كاتب المقال لابد له هو الآخر أن يبحث عن طريقته الخاصة فى تناول الحقائق . فكتابة المقال فن ، وكل فن فى حاجة إلى موهبة ، أو بالميت فى حاجة لدراسة . وقد كنت أعجب وأنا طالب حين أقرأ قائمة الشهادات المدونة تحت أسماء كبار الجراحين والعلماء الذين يؤلفون مراجع العلم والطب وأجد أن كثيرين منهم قد حصلوا فوق شهاداتهم العلمية ، وفقط من أجل أن يجيدوا كتابة المرجع .

وفى هذا المجال أيضا لا أزال أذكر كيف أننا كنا نحضر محاضرات يلقيها المعيدون والمدرسون والأساتذة ، وكنا نلاحظ أن أسهلها فى الفهم جميعا هى محاضرات الأستاذ فقد كان يبدو وكأنه طالب أو رجل شارع متحدث عن أعقد المسائل بأبسط أسلوب ، وكان أعقدها وأعسرها على الفهم محاضرات بعض المعيدين حين كانوا يحاولون أن يظهروا فى ثوب الأساتذة المعلمين ، تماما كبعض إخواننا من كتاب ذلك النوع الذى ثقلوا دمه .. أدب المقال !

لمن تدق الأجراس ؟

كثيرا ما أسأل نفسى : هل فقدت الكتابة وفقد الكتاب أهميتهم فى مجتمعنا ؟ نحن لا نحيا حياة الشعوب العادية ، لا تمضى حياتنا فى سلاسة وتؤدة وإنما نحن نحيا فى فترة استثنائية فى حياة الأمم ، فترة بناء الدار وتصنيعها وكفالة حق العمل والحياة والأمن لأفرادها . فترة يبنى فيها كل شىء أمامنا ونحس البناء وهو أساس ثم وهو يعلو ثم وهو يتم ويصبح حقيقة مجسدة لا تقبل الجدل . فترة المجد فيها للبناء والمهندسين والمحاربين والعمال والانتصارات .

فى مثل هذا الجو النفسى ، وفى الفترة التى امتلكنا لأول مرة كشعب إرادتنا بحيث أصبح من حقنا أن نريد وفى قدرتنا أن نحقق بين يوم وليلة ما نريد ، فى فترة لا نحلم فيها وإنما نحن مشغولون إلى أقصى طاقتنا بتحقيق الأحلام ، فى فترة الكل فيها ثوار ، الحكم فيها ثورى ، والشعب ثائر ، وحتى الأفراد كل منهم غير راض عن نفسه ووضعه يريد تحقيق ذاته وتحسين حاله والمطالبة بكل حقوقه ، فى هذا المهرجان الثورى الحافل البانى الصاعد المكهرب بالسرعة يريد أن يعوض فى اللحظة ما تأخره من سنين .

أين يقف الكاتب من هذا كله ، وماذا عليه أن يفعل ؟ وماذا عليه أن يقول ؟

إننى أكاد أسمع الأصوات الهاتفة المتحمسة وهى ترد على السؤال وتجيب : إن على الكاتب أن يتقدم الموكب ويحمل القلم فى يده كما يحمل أخوه المدفع أو « البنسة » وأن يساهم فى معركة البناء القائمة على قدم وساق ، إن الإجابة

تأتى دائما هكذا بسرعة وحسم وبساطة . على الكاتب أن يحمل قلمه ويخوض المعركة ويصور بطولة البنائين وشجاعة المحاربين وزحف الشعب المقدس .. بمعنى أدق على الكاتب أن يقوم بدوره كمهلل ومحفز ومحمس ، على الشاعر أن ينشد القصائد قبل المعركة ليثير الدماء فى العروق ، وعليه بعد المعركة أن يمجد بطولات من خاضوها .. وعلى القصصى أن يصور بفنه النموذج الإيجابى البطل كى يحذو المواطنون حذوه . لو هكذا فعل الشاعر والكاتب والفنان لأصبح الفن جزءا لا يتجزأ من معركة البناء ، ولأصبح حقائق وانتصارات مجسدة مثله مثل أى مصنع يقام أو أى سلعة نفخر أننا صنعناها بأيدينا . هكذا يجيبك المتحمسون ببساطة ، وببساطة أيضا يعزون تخلف أشكال الفن والكتابة وعدم أخذها المكانة الجديرة بها فى حياتنا إلى تخلف الفنانين والكتاب وتقاعسهم عن القيام بهذا الدور .

فهل القضية بهذه البساطة ؟ وهل حلها يتم بهذه السهولة ؟ بمجرد أن يشد الكتاب والفنانون « حيلهم » ويخلعون ثياب التواكل والفتور وتعديهم موجة الحماس ؟

الفن ليس نصائح تربوية :

الواقع أن القضية أبدا ليست كما يتصور هؤلاء البعض .. فالخطأ الأساسى الذى يقعون فيه هو أنهم يتصورون بادئ ذى بدء أن الكتابة — أو الفن — دورها قاصر على تمجيد العمل البشرى وعلى دفع العاملين إلى العمل وحفز هممهم .. إنه دور نوع بعينه من أنواع الفن والأدب ، دور الأدب المدرسى والتربوى والحواديت التى تقال للأطفال لتحبب إليهم الخير وتبغضهم فى الشر . إنه نفس الخطأ الذى يتورط فيه دعاة الفن للفن ، والموسيقى من أجل

الموسيقى وحدها وليس من أجل ما تحدثه فى النفس والناس .

إن الأدب والفن ليسا نصائح تربوية ومدرسية من ناحية ، وليسا فنا وأدبا من أجل الفن والأدب فقط .. إن الآداب والفنون أهداف كبرى من أهداف الحياة الانسانية نفسها . مثلها مثل لقمة العيش والرغبة فى التناسل وحب الخير وازدراء كل ما هو شر . إن الفن جزء لا يتجزأ من الحياة ، ومن أهدافها ، لم يوجد مع الإنسان البدائى وحتى الحيوان عبثا ، ولا عبثا كل تلك الأهمية والقداسة التى يكنها له الجنس البشرى فى كل المراحل والعصور . إن الإنسان بغير فن إنسان ناقص .. بل بغيره لا يمكن أن يكون إنسانا ، وليس فى هذا أدنى مبالغة . فلنتصور حياتنا وقد خلت من الموسيقى والأغانى والروايات والقصص والرقص والدموع والضحكات ، لنتصورها بغير إذاعة أو مسرح أو سينما أو تليفزيون أو جلسات وتجمعات . إن الخيال نفسه لا يطاوعنا على تصورها . وصحيح أن الفن لابد أن يدعو لشىء ما ، ولابد أن يحتوى على ترفيه ما ، ولكنه أبدا لا يمكن أن يكون فنا إذا اقتصر على الدعاية لشىء ما ، حتى لو كان هذا الشىء أقدس المقدسات ، أو الترفيه عن الناس حتى لو كان هؤلاء الناس هم جماهير الشعب بأسره . إن فى الفن الحقيقى عناصر أخرى وأشياء تخاطب ما هو أعمق من حياتنا اليومية أو السنوية ، وما هو أعمق من إثارة عواطفنا الوقتية من مرح أو شجن أو بكاء . كل ما فى الأمر أننا لم نكتشف بعد ماذا تحدثه بالضبط هذه العناصر فى نفوسنا ، ولماذا نحتاجها كل هذا الاحتياج بحيث لا نستطيع الحياة كبشر بدونها ، ونحن لم نكتشفها بعد لأن إنتاج الفن واستهلاكه ليست عملية ساذجة بسيطة كما يسذجها ويبسطها هؤلاء الذين ينعون على الكتاب والفنانين تقاعسهم ، وإنما هى عملية معقدة لغزها من لغز الحياة نفسها وسرها .

بناء فى حد ذاته :

المشكلة إذن أن الفن ليس جزءا متمما ومجملا لعملية البناء الاقتصادى والاجتماعى التى نقوم بها ويستغرقنا الحماس لإتمامها . المشكلة أن الفن نفسه بناء فى حد ذاته ، هدف لا يقل خطورة وأهمية عن صناعاتنا الخفيفة أو الثقيلة ، بل هو أخطر منها بكثير لأنه إذا كان يمت إلى صناعة ما بصلة فهو يمت إلى صناعة الإنسان .. أثمن وأغلى وأرقى ما نمتلكه .

المشكلة أننا نوجه إلى الكتاب والفنانين الدعوة الخاطئة ، فبدلا من أن ندعوهم إلى بناء فنوننا وإنتاجها ونطلق حريتهم فى إثراء هذا البناء واعتصار أنفسهم لإقامته .. بدلا من هذا ندعوهم إلى التخلى عن ذلك الدور المقدس كى يقوموا بتمجيد المصانع والمبانى والمشروعات ، نفس الخطأ الذى نرتكبه حين نطلب من مهندسينا مثلا أن يتخلوا عن دورهم فى تشييد المصانع وإقامة المشروعات الحيوية لنا كى يقيموا مشروعات ومصانع الهدف منها تخليد نهضتنا المسرحية أو الموسيقية أو الأدبية .

ويبدو أننا لا نريد أن نتعلم من التاريخ أو حتى من التاريخ القريب ، والتاريخ يحدثنا عن ثورات قامت فى بلاد من أجل التصنيع والكفاية والعدل ، وبنت هذه الثورات موقفها من الفن والأدب على المفهوم الساذج السطحى الدعائى التربوى للفن والأدب ، فكانت النتيجة أنه بعد نجاح تلك الثورات اكتشفت الشعوب أنها أقامت بناءات ضخمة عالية لكل شىء ولكنها نسيت أو أجبرت على تناسى أهم شىء .. بنائها الروحى والفنى ، وهكذا لم تخسر تلك الثورات تراثا فنيا حقيقيا فقط ، ولكنها خسرت — وهذا هو الأهم — التفاعل بين إنسان الثورة وهذا التراث المفقود ، بحيث حكم على جيل أو أجيال أن يخرج إلى الوجود كسيح الروح ، وهذا ليس خطأ بل هو فى رأى العلم والحياة

والثورة جريمة ، جريمة تكرر حدوثها للأسف فى التاريخ ومنذ أقدم العصور .. إن الحضارة التركية استمرت مسيطرة عسكريا وسياسيا على أهم أجزاء العالم ما يقرب من الألف عام ، ولكنها كانت حضارة بلا فن . والنتيجة أن التاريخ لا يذكرها حتى كحضارة وإنما يذكرها كفترة سوداء من فترات القهر والطغيان . بل نحن حتى حين نصفى الحضارات لنعرف ماذا يبقى منها للتاريخ نجد أن كل الأشياء تزول وتتلاشى ويلفها العدم إلا ما حققته تلك الحضارات فى الفن والأدب والعلم باعتبارها الثمرات الحقيقية التى تستخلصها البشرية من أى تطور أو تمدين أو ازدهار .

هل من المعقول إذن أننا فى ثورتنا الحضارية الكبرى هذه نكرر نفس الخطأ الذى حدث ، ونستمع إلى فهم بالغ الخطل والشطط لدور الفن والأدب .. لنخرج للعالم حضارة كسيحة الروح ؟

إن الصناعات والكهرباء والقوة العسكرية ليست أهدافا بالمرة ، إنها ليست سوى وسائل لتأمين إنساننا وتعليمه وتطويره كى تتبدى قدرة هذا الإنسان على الخلق والابتكار ، كى يزهر إنساننا ويثمر فنا وأدبا وعلما وثقافة ، كى تضىء حياتنا لا من الكهرباء أو الذرة وإنما بالنور الصادر عن عقل إنساننا ووجدانه وقد تحرر واطمأن .

الأولوية للأثر المباشر :

إن الخطأ يحدث أحيانا بحسن نية ، وبحسن نية يعتقد بعض الناس أننا ما دمنا فى ثورة بناء فلابد أن يكون كل ما يبنى واضحا جليا ظاهرا للعيان له أثره المباشر الملموس . فالمصنع ينشأ اليوم ليعمل فيه العمال غدا وبعد غد ، نتسلم منتجاته كتلا وطرودا وأحجاما ملموسة ونستخدمها وتصبح جزءا من

حياتنا . ولكن المنشآت الفنية والأدبية أشياء قد لا تكون باهرة الحجم والمظهر ولا هي سريعة المفعول ، والذى يروج منها ونحتفل به هو النوع الضخم الواضح الأثر والمفعول .. أوبرا مثلا يتكلف إخراجها الشيء الفلانى وفيها غناء ورقص وباليه ، أو استعراض يضم ألف راقص وراقصة ، أو مسلسلة إذاعية تستغرق شهرا أو عاما أو ربما أعواما ، أو رواية بالغة الضخامة وليس مهما لو كانت فقيرة فى الخلق . إن ما نحتفل به هو الضخامة وسرعة المفعول وكل ما نستطيع أن نطلق عليه « انتصار » ، ولهذا نحن على استعداد أن نطلق اسم سباح أو لاعب كرة على شاطئ بأكمله أو شارع بينما لا يمكن أن يحظى بهذا الشرف مفكر أو عالم أو فنان ربما تغير بضع صفحات يكتبها من مجرى حياتنا وحياة أولادنا . ذلك أن البناء الفنى أو العلمى أو الأدبى لا تحفه فى الغالب أكاليل الانتصار ، ولا يقيمه صاحبه ليصبح نجما من النجوم أو بطلا من الأبطال ، وإنما يقوم به أناس جعلوا من فنهم أو علمهم رسالة وهبوا أنفسهم لها ، قدرهم أحد أم لم يقدرهم ، وصفوا بالبطولة أو اتهموا بالخيبة والتقاعس .

المقيـــاس الوحيـــد !

إن بناء حياة فكرية وثقافية وفنية حقيقية تكون الزهرة والثمرة الأصيلة لحياتنا كلها . وحضارتنا مهمة بالغة المشقة فى حاجة إلى رهبان وقديسين ، وأشق ما فيها أنها تتم بمعارضة شديدة من أصحاب الحلول الجاهزة السهلة وبغير تشجيع من أحد .. فالدولة لا تشجع إلا ما يعود على جماهير الشعب بالأثر السريع المنتج . والشعب مشغول بالنجوم والأبطال والانتصارات ، فما أكثر ما قضى من وقت وهو لا يذوق سوى الهزائم وقد آن له أن يحيا

الانتصارات ويخلقها حتى إن لم توجد . ولهذا فعلى قدر ما أصبحت الرياضة وأبطالها نجوما خوارق يحظون بالدعاية الشعبية والرسمية .. على قدر ما أصبح البناء والبناة لقبا ومفخرة ونياشين وميداليات .. على قدر ما احتلت كل فئة من فئات المجتمع التى تكرس نفسها للتصنيع والتشييد والانتصارات مكانها فى سماء حياتنا .. على قدر هذا كله فإن مكانة هؤلاء الذين يبنون حياتنا الفكرية والفنية تأخذ أقل الأوضاع . صحيح أن عدد الكتب والمسرحيات والمؤلفات والفرق التمثيلية ومنابر النشر قد ارتفعت وربما تضاعفت عشرات المرات ، ولكنى هنا لا أتحدث عن « النهضة » فى التطبيق والتنفيذ ، ولكنى أتحدث عن النهضة الحقيقية فى التأليف والخلق والتفكير ، وعن خالقى هذه النهضة . أتحدث عن هذه القلة القليلة التى لا تحظى بتكريم أحد والتى أوشك مجتمعنا أن يهملها إهمالا تاما ، هذه القلة التى كانت جديرة بأن تزين بإنتاجها — واحتفالنا بإنتاجها — صدر حياتنا ، وتصبح هى النموذج والمحتذى . فإن مقياس حضارة أى أمة أو فترة من فترات التاريخ يستدل عليه بمقدار ما كانت تحظى به هذه القلة من رعاية واهتمام . إنه مقياس التحضر الحقيقى والنهضة الحقيقية وليس هناك أى مقياس آخر .



اصرخ وعش ولا تمت

شعور غريب كان يراودنى وأنا واقف مثل أبطال الروايات خلف باب مغلق أروح وأجيء وقلق أجوف رنان لم أحسه من قبل يتزايد ويغمرنى . كنت أعرف بالضبط ما يدور فى الداخل . منذ لحظات وجيزة وأنا أخوض تجربة الأبوة الأولى لطفل لم أره بعد ، وكل معلوماتى عنه كلمتان اثنتان قالتهما ممرضة مسرعة ملهوفة :

ـــ مبروك .. ولد .

ولكننى عرفت فى الحال أنه ابن مع إيقاف التنفيذ .. فقد انتظرت أن أسمع صراخه ولكن صرخة واحدة لم تغادر باب الحجرة المغلقة . ورغم كل المطمئنات ، وكادات الابتسامات المرتسمة على وجه الداخل والخارج لتهدئ من روعى وتقنعنى أن كل شيء على ما يرام ، فقد كنت عالما تماما أن الباب يفصلنى عن حدث بالغ الخطورة ، أخطر حدث .. فالجنين بلا شك يعانى من الاختناق . ولايتنفس ، ومصيره دق حتى أصبح معلقا بخيط أوهى من الدقائق الفاصلة بين الرابعة والرابعة وسبع دقائق .. إما أن يجتازها إلى حياة عريضة تعد بعشرات السنين ، وإما عودة سريعة إلى الظلام الذى خرج منه .. الدقائق القليلة التى يتحول فيها الجنين من سمكة تعوم فى ماء إلى إنسان يتنفس هواء .. التى تفصل بين رحلة طويلة منذ أن كان ذرة رمل حية إلى أن أصبح كاملا له أمعاء ومخ وأعضاء . والرحلة الأطول التى تنتظره والتى سيتعلم فيها كيف يتكلم وسيجرب ويحب وينتصر وينهزم ويشيب شعره ويتزوج ويقف

هو الآخر ينتظر مثلى خلف باب مغلق .. الدقائق قليلة جدا ومصيره فيها معلق والإرادة العليا التى سوف تحدده قد تلبست الآن أيدى الطبيب .. والطبيب لم أعرفه من قبل وإن كنت قد سمعت عن براعته وحذقه . ولكن الموقف أصعب موقف ، والبراعة لها حدود ، والمطلوب براعة تفوق الحدود ، براعة من براعة الله تخلق وليدا من الجنين الأزرق الذى لا يتنفس . ورغم وقفتى بالخارج فأكاد أشارك الطبيب شعوره ، شعور الإنسان بكل محدوديته حين تمنحه الظروف قدرة الله ليصبح بإذنه يستطيع أن يحيى ويصبح خوفه الأكبر أن يموت .. حين يصبح إنسانا بمسئولية إلٰه وعواطف بشر . ودقيقة مرت ، ودقيقتان ، وأعصابى تحمر وتتوهج ثم تصيبها القشعريرة فتتجمد ، لتعود فجأة وتتوهج مع كل فتحة باب ، وكل نأمة صوت وكل انبعاثة هرج أو مرج .. نفسى تحدثنى أن أدخل لأرى ، لعل الرؤية تذهب القلق . ولكن مانعا أكبر يمنعنى ، فأنا عالم تماما بنوع العمل الدقيق الحاسم الساحر الذى يقوم به الدكتور على فى الداخل ، كيف أقطع عليه خلوته وهو يعيد الأنفاس إلى جسد يتنفس . وهو يعيد لون الحياة إلى أظافر اختنقت واسودت . كيف أقطع خلوته وهو يقوم بدوره الإلٰهى .. إن مجرد تبادل التحية ، مجرد شعوره بدخول غريب . مجرد نظرة تصوب أو أصبع ترتجف قد يفلت لها الزمام .. عقارب الساعة تدور ، عقرب الدقائق كأنه أصبح عقرب ثوان ، وعقرب الثوانى كأنه انقلب إلى عقرب كل اختلاجة منه تلدغ . وبعدى عن المعركة الدائرة فى جسد الابن الذى لم أره يجعل أعصابى تزداد هوسا فى تذبذبها بين التجمد والتوهج . لا يزال الصمت هو الأقوى وهو المسيطر . والوقت المولى هو الأسرع ، والاسفكسيا الزرقاء لابد أنها تتحول الآن إلى اسفكسيا بيضاء لا رجوع فيها ولا منها .. لو لم تعد الحياة للجنين فمن المحتم أنها ستفارق أمه

أيضا . أية أحلام بنتها ، وأى فرحة حملتها وضمتها تسعة أشهر ، والملابس التى فصلتها ، وقمصانه المفتوحة من الخلف ذات الأكمام التى فى حجم الأصبع . خمس دقائق كاملة مرت ، دار خلالها العقرب خمس دورات كاملة مرت فوق الأمل فطحنته وساوته باليأس والأرض واللا أمل .. رفة حركة مفاجئة حدثت فى الداخل أعقبها أمر باتر سريع من الطبيب .. أتراها رفة النجاح التى تسبق الهمود الدائم ؟ لابد أن الموقف يتدهور والأزمة تتيبس فالأقدام كثرت حركتها ومفتاح أسطوانة الأكسيجين وقع على البلاط فأرعد بناء المستشفى كله .. ثم الصمت الهائل مرة أخرى .. الصمت الكامل .. لابد أن الأحياء بالداخل كفوا عن التنفس هم الآخرون . أنا لم أعد أسمع .. سبع دقائق مرت .. ها هى الثامنة القاضية فى الطريق .. لابد أنى عدت أسمع . لابد أنها كحة أو صرخة أو حشرجة أنفاس أو ضجة غريبة المصدر .. صرخة .. لهثة .. صوت أول هواء يدخل إلى الصدر الذى لم يذق للهواء طعما .. أجل صرخة .. إنها صرخة .. صرخات متصلة مبللة بلعاب الاختناق الموشك ، أتكون قادمة من مكان آخر ؟ أيكون طفلا آخر ؟ .. لا .. بل هو .. لابد أنه هو .. أقسم أنه هو .. لا .. لا .. لا أريدها ضعيفة هكذا .. أقوى .. مرة أخرى أقوى .. بكل قوتك اصرخ يا ولد .. اصرخ يا بنى .. تنفس يا أحمق .. بعمق .. تنفس .. افتح صدرك كله وافتح صدرى معك وتنفس .. إنى معك فتنفس .. أنفاسى معلقة بأنفاسك فتنفس .. واصرخ واملأ الدنيا صراخا .. وتنفس .. بربك لا تكفى أيتها الحياة الصغيرة الجديدة عن الحياة .. لا تتحولى أبدا إلى كتلة .. بكل كيانك انبضى .. وبكل نزقك ارفسى .. ضمى قبضتيك بشدة وتأزمى وقوليها عالية ، أعلنيها للدنيا ، لكل الأحياء : أنا القادم الجديد .. أنا أخوكم الجديد .. قوليها بصرخة .. قوليها بواء .. واء .. واء .. !

★★★

وفقط حين امتد الصراخ حتى أصبح يقينا لا شك فيه ، وحين تبينت صوته وقد انتظم واشتد وأصبح يمخر به عباب الدنيا نافضا عن نفسه الزرقة والاسفكسيا والعدم .. حينئذ فقط ، فتحت الباب . ورأيته .. رجلاه الصغيرتان مضمومتان إلى أعلى فى عناد حبيب .. وصدره الذى فى حجم القبضة منفوخ كصدر الديك .. ويداه الدقيقتان تحتضنان الهواء فى استماتة غريق فى بحر من الهواء ..

ورأيت منقذه الدكتور وقد انتهى من دوره المعجز ، حبات العرق نابتة بغزارة على جبهته ، وأنفاسه هو الآخر تلهث . وملامحه تشع منها فرحة حياة أحيت لتوها حياة .

وما كدت أمد يدى لأصافحه حتى أحسست بشىء يشرح قلبى . إذ يبدو أن التمرجية لم تتمالك نفسها وأطلقت زغرودة ، ولأول مرة أحس بالزغرودة وكأنها صفارة الحياة تنطلق من القلب لتهز القلب ، وتؤذن ، وتبشر بالنجاة .. وبالحمد لله على السلامة .



حين ضاع الولد

هى لمحة هزار من القدر أو إشارة من القوى المجهولة تقول : نحن هنا ، ونحن على الدوام بالمرصاد . ولكنها على أية حال تجربة ، وإذا كان بعض الناس يستبيحون لأنفسهم أن ينفقوا الأموال والصفحات والمجهودات فى حديث معاد عن الكورة والشواكيش والعناتيل والبناطيل ، وإذا كان يحلو لبعض الناس أن يتضاربوا بل ويقتل بعضهم بعضا فى حماس أخرق من أجل هذا اللاعب أو ذاك ، فمن حقى هنا أن أروى تجربة قد تبدو ذاتية ولكن على الأقل فيها إنسانية ، إذ ـــ فجأة ـــ تفقدت ابنى الصغير على البلاج فلم أجده . كنت جالسا أقرأ الجرائد وألاحظه وهو يلعب . وفجأة لم أره ، ودرت بعينى دورة سريعة فلم أعثر له على أثر ، لجزء من الثانية دق فى رأسى الاحتمال :

أيكون قد فقد ؟ ولكنى استعنت بكل شىء كى تصرخ أعماق : غير معقول ، لا يمكن أن يكون قد فقد ، لابد أنه عند « الدش » ، أو عند بائع « الجيلاتى » ، أوفى مكان ما حول الشمسية . كنت أجلس متعبا ، ملولا ، أتطلع فى بله نفسى إلى كل ما حولى غير مؤمن بالصيف أو بالراحة وبكل هؤلاء المتزاحمين فى جنون متحضر حول رقعة صغيرة من البحر ، يفسدون الجو والبحر والطبيعة ليتحدثوا عن « حلاوة » البحر والجو والطبيعة ، وكل ما يعزينى أن الأولاد سعداء وأنهم يختزنون فى ذاكرتهم الدقيقة صورا لسعادة موهومة ستظل عالقة بها أبد الدهر ، وبها ذكرياتنا نحن أيضا من طفولتنا ليست سوى خدعة !..

انتفضت واقفا فجأة ومن كل اليأس والحيرة والضياع تبدى لى فجأة هدف واحد محدد : أن أعثر على ابنى وأن أراه مرة أخرى .. أسرعت إلى كل ناحية من النواحى الأربع ، إلى العائلات المتجمعة أتطلع ، إلى المستحمين فى البحر .. اللاعبين الكرة خلف الشماسى ، الأشياء والكائنات الكبيرة كنت أنبذها،كل صغير ثابت أو متحرك كنت أنظر إليه ، وأصبح علىّ مهمتان أن أبحث عن بهاء الصغير وأن أطمئن زوجتى ، وكل دقيقة تمضى دون العثور عليه تقربنا بسرعة من فاجعة أنه حتما وبكل تأكيد قد فقد .. خلال الدقائق القليلة القادمة إما أن نعثر عليه وإما أن يكون قد ضاع . والوقت ثابت جبان يهرب ، ويمضى دافعا إيانا لنواجه الحقيقة . إنه شعور لا يمكن أن نحسه ولا يمكن وصفه ، شعور الأب أو الأم حين ينقطع فجأة ذلك « الكابـل » الإحساسى الذى يربطهما بابنهما ، وهو بالتأكيد عند الأم أقوى ألف مرة . إننا عند الولادة نقطع الحبل السرى المادى الواصل بين الأم ووليدها ، ولكن يبقى مع هذا حبل لا يمكن قطعه ، حبل سرى وجدانى حقيقى .. بل أكاد أقول مادى يصل بين الأم وولدها . الحبل انقطع .. لا يوجد على الطرف الآخر كائن حى لذيذ صغير اسمه الولد .

أربع أو خمس مرات ذرعنا الشاطئ طولا وعرضا ، كل شىء كما هو عليه ، البحر هادئ ، الأمواج تتهادى وكأن لم يحدث شىء ، المصيفون يثرثرون تحت الشماسى ويتمطون ، الرمل ممتد ، المضارب تضرب الكور ، صراخ المرح ينطلق شارخا الجو بين الحين والحين .. كل شىء كما هو إلا الفجيعة الداخلية التى لا يحسها أحد سواك ، أنت وحدك الذى يمزقك التناقض الصارخ بين خارجك حين تراه عاديا طبيعيا وداخلك وأنت تحسه ألما له لسع النار . عشر دقائق مضت ولم يظهر الولد . الحقيقة العارية القاسيـة ..

فقد الولد . مستحيل ، لا يمكن أن يكون قد ضاع . لابد أنه فى مكان ما هنا أو هناك ، لا يمكن أن يكون قد ضاع . فلتستمت باحثا منقبا ، ولكن أى بحث ! إنك فى غابة أشجارها ألوف السيقان وأوراقها مايوهات وشماسى . إنه بحر آدمى كبير ابتلع الولد كما تبتلع المياه أى كائن وهدأ سطحه والتأم وكأنه لم يبتلع شيئا . الأمل الأخير .. البوليس .. لابد أنه يعرف الطريق للحصول على الأطفال المفقودين . نقطة الشاطئ غير بعيدة . أسرعت إليها ، أربعة عساكر جالسون يدخنون فوق أريكة ، وواحد ينظر من الشباك . شاويش يجلس على مكتب محرجا وكأنها أول مرة يجلس فيها إليه . الولد ضاع ؟ ولا يهمك .. ولا تخف . سألنى الشاويش : هل ضاع اليوم أم أمس ؟ أمجنون ذلك الرجل ؟ وما الذى يجعلنى أنتظر إذا كان قد ضاع بالأمس للتبليغ عنه اليوم . ضاع منذ نصف ساعة . منذ نصف ساعة فقط ؟ هذه بسيطة جدا . من المحتمل أن يظهر الساعات القليلة القادمة . ولا يهمك . كل يوم يضيع طفل أو طفلان ويظهرون . أحدهم ظهر بعد يوم كامل ، لابد أن الولد مع عائلة مصيفة عثرت عليه وستنتظر بعض الوقت ثم تحضره إلى النقطة . عنوانك ، بطاقتك الشخصية . لم أفه بحرف واحد . غادرت النقطة يائسا تماما ، ما فائدة البوليس إذن إذا كان الناس هم الذين يعثرون على الآدميين والأشياء المفقودة ؟ إذا كان الناس هم البوليس الحقيقى ؟ عدت إلى الشاطىء مرة أخرى . لاحظت أن الوقت قد مضى والساعة قد بلغت الثانية والنصف ، وأصحاب الشماسى ينصرفون ، والشاطئ يبدأ يخلو ، هنا الكارثة ، فأملى كله هو فى وجود الناس على الشاطئ ، فأنا أعرف أن الولد بينهم ووجودهم أمل فى وجوده . يا رب دع الشمس لا تتحرك . الصراع قوى رهيب شديد ، بين تصورى لاحتمال أن يكون قد فقد نهائيا والأمل

الضعيف يساورنى فى ضعفه للعثور عليه ، موجات إحساسية تهب وتلهب خيالى بصوره وهو يلعب .. وهو يجن جنون الأطفال .. وهو يغمض عينا ويفتح أخرى إذا ما واجه الشمس .. يا رب علق الشمس . الميكروفون لابد من عربة بميكروفون . يا أولاد الحلال ولد تايه . ولد لو عرفتم كيف تحملنا فى سبيل أن يعيش . كم مرض وعالجناه.كم كاد يهلك وأنقذناه ، ولد مهما رأيتم فيه فرأينا فيه أنه ألذ أولاد العالم لأنه ابننا . ولكن الشمس تتحرك إلى الغرب مهددة بالسقوط فى البحر ، والناس ينصرفون و لم يبق سوى بؤر حياة على الشاطئ ، والبحر يبدو مهجورا تعيسا .. وكأنما الحياة تختفى نهائيا من فوق سطح الأرض يقتلها يأس كبير أسود يزحف من كل اتجاه .. من الماء والسماء والشرق والغرب .. مرة أخرى إلى النقطة ، لا ، لم يحضر أحد ، مرت ساعتان و لم يحضر أحد ، لابد أنه غرق فى الماء ، فى الماء أو فى الناس أو فى المدينة . إنها كلها أصبحت مجاهل مخيفة ، فى ثانية ممكن أن تبتلع طفلك أو تبتلعك فلا يظهر له أو لك أثر ، بعض شبان البلاج يسخرون من رواحنا وجيئنا على الشاطئ كمن فقدوا عقولهم .. لهم حق ، إنهم لم يجربوا بعد هذا الطعم ، طعم أن تفقد أحب وأصغر المخلوقات إليك .. ترى ماذا يفعل الآن وهو تائه ؟ وهو يحس أنه ضائع بلا أب أو أم أو أخ ؟ وهو يبكى بكاء العاجز فسنه ثلاث سنوات ونصف ، ليسترد أباه وأمه وحياته ؟

ساعة ألم أبشع أخرى قضيناها ، أو قضيتها وحدى . فالأم كانت قد تركتنى ومضت مدفوعة بعوامل فوق حدود العالم والعقل تبحث فى منطقة كان من المستحيل أن يوجد فيها لبعدها الشديد عن المنطقة التى فقد فيها ، وكنت مشغولا أفتش عن عربة وميكروفون وكل تلك الإجراءات الشكلية التى لا تجدى وثبت أن الغريزة هى الأقوى والأحكم ، فبعد ساعة ظهرت

زوجتى وهى تحمل الولد وقد عثرت عليه مع بعض أولاد الحلال فى تلك المنطقة البعيدة .

الآن فقط أحس بمدى الفجيعة التى كانت ترقد وراء عم إبراهيم وهو ينادى ونحن صغار : يا ولاد الحلال ، ولد ضايع ولابس جلابية بيضا ، ذلك الذى كنا نسير وراءه نردد كلماته أطفالا ونحن فى منتهى السعادة ، وعلى وجوهنا نفس الابتسامة السعيدة التى كانت مرتسمة على وجه الولد ، فهو لم يتصور أبدا أنه ضاع ، و لم يحس مطلقا بأية فجيعة .



الفهـرس

صفحة

صفحة

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه
تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الدكتور يوسف إدريس :

(أ) مجموعات قصص قصيرة :

١ ــ أرخص ليالى .
٢ ــ جمهورية فرحات وقصة حب .
٣ ــ أليس كذلك .
٤ ــ قاع المدينة .
٥ ــ البطل .
٦ ــ حادثة شرف .
٧ ــ آخر الدنيا .
٨ ــ لغة الآى آى .
٩ ــ النداهة .
١٠ ــ بيت من لحم .
١١ ــ أنا سلطان قانون الوجود .

(ب) المسرحيات :

١٢ ــ ملك القطن وجمهورية فرحات .
١٣ ــ اللحظة الحرجة .
١٤ ــ الفرافير .
١٥ ــ المهزلة الأرضية .
١٦ ــ المخططين .
١٧ ــ الجنس الثالث .
١٨ ــ نحو مسرح عربى .
١٩ ــ البهلوان .

(جـ) روايات :

٢٠ ــ الحرام .
٢١ ــ العيب .
٢٢ ــ رجال وثيران .
٢٣ ــ العسكرى الأسود .
٢٤ ــ البيضاء .
٢٥ ــ بصراحة غير مطلقة .
٢٦ ــ اكتشاف قارة .
٢٧ ــ الارادة .
٢٨ ــ مفكرة د . يوسف إدريس (جزء أول)
٢٩ ــ مفكرة د . يوسف إدريس (جزء ثان)
٣٠ ــ جبرتى الستينات .

رقم الايداع ٢٧١٣
الترقيم الدولى ٩ ـــ ٠٠ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش